# دوستويفسكي

# الوديعة

## وحادث مؤسف للغاية

روايتان

ترجمة : د.نظمي لوقا

فريق متميزون
E-BOOK

أقلام عربية للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

**قام بالتحويل لهذا الكتاب:**

**كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**

**وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.**

**مع تحيات: فريق (متميزون)** انضم الى الجروب

انضم الى القناة

# الوديعة

رواية

الكاتب: ديستويفسكي
ترجمة: د. نظمي لوقا

# عن هذا الكتاب..

إليك أيها القارئ العزيز روايتين من أبدع ما كتبه فيدور ميخايلوفتش ديستويفسكي ( 1821 – 1881) وهما: "الوديعة" و "حادث مؤسف للغاية"...
والوديعة نموذج فذ في الحوار الداخلي، والتحليل النفسي، يقول ديستويفسكي عنها أنها تجري على الأسلوب الفريد الذي لم يسبقه إليه سوى فكتور هيجو في عمله العظيم: "آخر يوم في حياة محكوم عليه بالإعدام"، فالبطل في قمة المأساة، يسترجع مراحل علاقته بعروسة التي انتحرت، ولم يزل جثمانها مسجّى أمامه، ويحلل هذه العلاقة المحمومة التي يتجاذبها قطبان هما العشق العنيف والرغبة في السيطرة، وكيف صارت هذه العلاقة عذابًا وجحيمًا من التناقض انتهى بانتحار الفتاة الوديعة المتكبرة..و" حادث مؤسف للغاية " نمط فريد أيضًا في التحليل النفسي والتصوير الساخر للتناقض الذي وقع فيه أرستقراطي شاب أراد أن يمارس ما خاله منتهى الديمقراطية، فأدى ذلك إلى أعجب المواقف وأوخم العواقب...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# مقدمة..

هو فيدور ميخايلوفتش ديستويفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١). كان والده طبيبًا في الجيش، أرسل ابنه إلى مدرسة الهندسة العسكرية، فهو إذن من طبقة صغار السادة الفقراء، ولم يمكث فيدور في خدمة الجيش أمدًا طويلًا، بل سرعان ما تركه ليتفرغ للأدب، وعاش حياة مادية مضطربة، تثقله الديون، بسبب ولعه الشديد بالقمار!

وقصته البكر، أي أول إنتاج أدبي له، هي "المساكين" التي ترجمت ضمن سلسلة روايات الهلال، ترجمة كاملة أمينة، وهي قصة عاطفية رقيقة جدًّا يجمع بطلها بين شدة الفاقة المادية وشدة الثراء النفسي وكرم اليد والخلق وسخاوة العطاء القلبي، وقد أكسبته هذه القصة الأولى شهرة عظيمة...

وتوالت بعدها قصصه، التي قدم في أوائلها - أي إنتاج شبابه - الصورة الأولى أو المسودة الموجزة لأنماط أبطاله في قصصه التي كتبها في مرحلة النضوج، ومعظمهم من النوع الحالم الذي يعيش في عالم من خلق خياله، ولكنه عالم كثيرًا ما يقوضه الاصطدام بظروف المجتمع الواقعية والانفعالات المتضاربة، مع خور العزيمة، وضعف الهمة، فأبطاله إذن يغلب عليهم الانسياق وراء عواطفهم، فهم أضعف من أن يصمدوا للصدمات وكثيرًا ما تصيبهم الظروف بإحباطات شديدة، لا قدرة لهم على مقاومتها.

وفي عام ١٨٤٨، انضم فيدور إلى مجموعة التفت حول "بتراشفسكي" فقبض عليه مع سائر المجموعة وحوكم أمام محكمة عسكرية، وصدر الحكم عليه بالإعدام، ولكن في لحظة التنفيذ، وبعد أن عصبت عيناه، واستعدت سرية الإعدام لإطلاق النار وصل رسول من القيصر يحمل مرسومًا بتخفيف الحكم إلى السجن في سيبيريا مع الأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات، ثم أعيد إلى خدمة الجيش هناك مع إنزاله إلى رتبة نفر!

وانقضت عشر سنوات قبل أن يسمح له بالعودة إلى روسيا لاستئناف عمله الأدبي وقد غيرت مدة السجن آراءه، وسار أكثر ميلًا إلى المحافظة بعد التطرف، بيد أن هذا السجن والنفي أرهقا لديه حالة الحساسية فتفاقم داء الصرع الذي أصيب به منذ لحظة الإعدام، وظل إلى آخر عمره متوعك الصحة.

وبعد عودته بدأ في كتابة قصص مرحلة النضوج، ومن أهمها: "مهانون ومحتقرون" و"ذكريات بيت الموتى"، وهذه القصة الأخيرة تصور الحياة في سجون سيبيريا.

* الجريمة والعقاب: وهي قصة الطالب الفقير "راشولينكوف" الذي قتل مرابية عجوزًا شريرة ليبرهن على أنه سوبرمان.

* الأبله: وهي قصة الأمير القديس "ميشكين"، الذي يتبع نداء قلبه النبيل ويتنازعه حب امرأتين متكبرتين من نوعين مختلفين.
* الممسوسون أو الشياطين: وهي قصة السوبرمان "ستافروجين" وأتباعه الذين يدورون في فلكه، وهم أنماط من المتمردين والطموحين والمتطرفين في البحث عن تحقيق ذواتهم بالعنف.
* الإخوة كرامازوف: وهي قصة والد فاجر مع أبنائه المختلفي المشارب والطباع...
وبعدها كتب ديستويفسكي ثلاث قصص أصغر من هذه حجمًا، منها: المقامر، والزوج الأبدي.
وديستويفسكي في جميع ما كتبه إمام القصة النفسية غير منازع، فقد وصل في تحليل النفس البشرية مدًى لم يبلغه أحد من قبله ولا بعده، ولا اهتمام له - كتولستوي مثلًا - بالأحداث الخارجية، بل يغوص بلا هوادة إلى أعماق لا شعور أبطاله، حيث يرينا إياهم في مواجهة الصراع الفظيع بين الخير والشر، أو بين الله والشيطان.
فأبطاله أنماط تمثل أفكارًا، ولكنهم مشخصون أتم تشخيص.
كلمة من المؤلف
لقد أطلقت على هذه الرواية القصيرة اسم "حكاية خيالية" أو "تخيلية"، في حين أني شخصيًّا أعدها واقعية من الطراز الأول. ومع هذا ففيها عنصر تخيلي، أعني في تكوين الحكاية نفسها، وهذا ما يحتاج - في اعتقادي - إلى شيء من الإيضاح.
والواقع أنها ليست سردًا ولا مجموعة مذكرات وملاحظات. ولك أيها القارئ أن تتخيل زوجًا أقدمت زوجته على قتل نفسها منذ بضع ساعات فقط، بالقفز من النافذة. وجسدها مسجًى على المائدة، وهو مبلبل الفكر، ولم يتسن له أن يرتب أفكاره. فهو لا يفتأ يجوب حجرات البيت ويذرعها، محاولًا أن يفهم ما حدث، وأن "يحمل أفكاره على التركز في بؤرة واحدة". ولا بد من القول بأن هذا الرجل مصاب بوسواس المرض بصورة متأصلة، فهو من أولئك الناس الذين تعودوا أن يكلموا أنفسهم. وهو هنا يكلم نفسه، مستعيدًا كل ما حدث، محاولًا فهمه. وبرغم ما يبدو عليه من تسلسل الأفكار وتناسقها، فإنه يناقض نفسه كثيرًا، سواء منطقه أو مشاعره. فهو يبرر نفسه ويتهمها في آن واحد، ثم يمضي في تفسيرات لا علاقة لها بالموضوع، بحيث تختلط الخشونة وقسوة القلب والعقل بمشاعر عميقة. وشيئًا فشيئًا يستوعب كل شيء "ويركز أفكاره في بؤرة واحدة" . ويستعيد ذكريات طويلة توصله إلى "الحقيقة"، وتطهر الحقيقة قلبه وعقله وتضفي عليهما نبلًا. وقرب نهاية السرد تتغير لهجته وتغدو مختلفة عن بدايته غير المتناسقة، وتتجلى الحقيقة للرجل المسكين بوضوح حاسم، بالنسبة له على الأقل.

وفي هذا ما يكفي للكلام عن الموضوع... أما سرد الحكاية فيستغرق طبعًا ساعات قليلة، متقطعة، ولذا نجد القصة غير مترابطة الشكل، لأنه إما أن يتناقش مع نفسه، أو يخاطب سامعًا غير منظور، المفروض أنه قاض. ولكن هذا ما يحدث فعلًا في الحياة الواقعية. فلو أن كاتبًا بالاختزال كان يصغي له ويسجل كل شيء فاه به، لبدا هذا التسجيل أشد فجاجة وأقل استواء مما أوردته بقلمي. ولكني أحسب أن السياق النفسي كان خليقًا أن يكون كما هو. وهذا المدون بالاختزال هو ما أسميه العنصر التخيلي في روايتي هذه. وما زدت على ادعاء إضفاء الشكل أو الصياغة الأدبية على ما دونه في حينه. ولكن شيئًا من هذا القبيل التخيلي قد اتبع في أعمال أدبية سابقة. فهذا هو "فكيتور هوجو" مثلًا في رائعته "آخر يوم في حياة محكوم عليه بالإعدام" قد لجأ إلى هذا النهج، ومع أنه لم يذكر لنا ولم يصور في روايته ذلك الكاتب الوهمي بالاختزال، فإنه أقدم على ما هو أقل من جدارة بالتصديق بافتراضه أن رجلًا محكومًا عليه بالإعدام كان قادرًا (وكان لديه ما يكفي من الوقت) لتدوين مذكراته لا عن يومه الأخير على الأرض فحسب، بل أيضًا عن ساعته الأخيرة، وحتى الدقيقة الأخيرة من عمره. ولولا هذا الموقف التخيلي أو الوهمي لما تسنى للعمل الأدبي نفسه أن يتم، ذلك العمل الذي جاء أكثر كتبه واقعية وصدقًا فنيًّا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الوديعة
# القسم الأول

# (1)

# من أنا ومن هي..

... أما وهي لم تزل هنا، فليس الأمر سيئًا جدًّا، لأني أستطيع أن آتي وأنظر إليها في كل دقيقة. ولكنهم سيأخذونها بعيدًا غدًا، وماذا عساني أصنع وأنا بمفردي عندئذ؟ إنها الآن في الحجرة الأمامية، على المائدة التي تكونت من وضع منضدتين للعب الورق متلاصقين. أما التابوت فسيكون معدًّا غدًا. وأنا أسير جيئة وذهابًا، وذهابًا وجيئةً، محاولًا استيعاب كل شيء. لقد مضت عليَّ ست ساعات عصيبة وأنا أحاول الفهم، ولكني عاجز عن تركيز أفكاري. وكل ما أستطيعه هو مواصلة السير جيئة وذهابًا، وذهابًا وجيئة...

وهذا ما حدث. وسأكتفي بإيراد ترتيب الأحداث (الترتيب حقًّا!). إنني أيها السادة أبعد ما أكون عن صفة الكاتب والمقدرة على الكتابة، كما تتبينون ذلك بأنفسكم. ولكن لا بأس، فسوف أدلي بما عندي على النحو الذي أفهمه. ولكن أفظع ما في الأمر أنني أفهمه بالكامل!

وما دمتم تريدون أن تعرفوا، أو على الأصح كي أبدأ من البداية، أقول إنها كانت قد جاءتني ببساطة كي ترهن عندي أشياءها لتحصل على أجر إعلانها في صحيفة "الصوت"، ومؤداه أنها مربية تنشد الحصول على عمل، وليس لديها مانع من السفر، ومستعدة لإعطاء دروس خصوصية، وما إلى ذلك، كانت هذه هي البداية الأولى، وبطبيعة الحال أنا لم أميزها من بين الآخرين، لأنها جاءت كأي شخص آخر، وهذا كل ما هناك. ولكني تبينتها وميزتها فيما بعد. وكانت نحيفة جدًّا، وشقراء في عذوبة شديدة، وطولها فوق المتوسط، وهي دائمًا مرتبكة في تعاملها معي وتشعر بالحرج.. (وأعتقد أنها كانت هكذا مع جميع الغرباء، وقطعًا أنا كنت لا أعني لها أكثر ما يعنيه أي رجل آخر، أعني بصفتي إنسانًا لا بصفتي صاحب محل رهونات). ففي اللحظة التي تحصل فيها مني على النقود، تولييني ظهرها وتنصرف على الفور. ولم تكن تنبس ببنت شفة مطلقًا. في حين يماكس غيرها من العملاء ويجادلون كثيرًا، ويتوسلون ويستجدون المزيد من النقود، أما هي فكانت تقبل أي شيء أعرضه عليها...

أعتقد أنني شردت وتبلبلت... آه. نعم. لقد كان ما لفت نظري إليها في البداية تلك الأشياء التي جاءتني بها. أقراط من الفضة مطلية بالذهب. ومدلاة صغيرة تافهة، وما إلى ذلك من الأشياء الصغيرة، التي لا قيمة لها. وكانت تعلم أنه لا قيمة لها، ولكن تعبير ملامحها أنبأني بأنها ذات قيمة ثمينة لديها. والواقع أنها كانت كل ما خلفه أبوها وأمها، كما عرفت ذلك فيما بعد. ولم أسمح لنفسي إلا مرة واحدة فقط أن أهزأ بهذه الأشياء. لأني في الحقيقة لا أسمح لنفسي بهذا أبدًا، لأني حريص على أن أكون السيد المهذب مع عملائي، فأنا معهم كتوم،

مهذب، متجهم وجاد. متجهم وجاد على الخصوص. بيد أنها كانت ذات مرة من الجرأة بحيث أتتني بهلاهيل (وأقصد بالمعنى الحرفي لكلمة هلاهيل) سترة قديمة من فراء الأرانب، فأغراني هذا أن أقول لها كلمة فيها شيء من التفكه. ويا ألطاف الله! لَكَم احمر وجهها! وكانت عيناها زرقاوين كبيرتين حالمتين، ولكن ما أشد ما توهجتا كاللهب!
ولم تتفوه بكلمة واحدة، بل لمَّت هلاهيلها وانصرفت! وكانت هذه أول مرة ألاحظها فيها وأتبينها بصفة خاصة، وفكرت فيها تفكيرًا متميزًا.
أجل.. وأتذكر أيضًا انطباعًا آخر، أو ثالثًا إن شئتم، هو الانطباع الرئيسي، الذي فيه جماع كل شيء وخلاصته، ألا وهو صغر سنها بصورة رهيبة. فقد كانت تبدو في نحو الرابعة عشرة. ومع هذا كانت في السادسة عشرة فعلًا يومئذ... تتمها بعد ثلاثة أشهر. وليس هذا ما كنت أريد أن أقوله. ليس هذا خلاصة الأمر إطلاقًا. وأتت مرة أخرى في اليوم التالي. وقد عرفت فيما بعد أنها كانت قد أخذت سترتها من فراء الأرانب إلى "ديرونرافوف" و"موزر"، وهذان الاثنان لا يقبلان رهونًا إلا الذهب. ولذا لم يتنازلا بالتحدث إليها. أما أنا فقد قبلت منها حجرًا ذا نقش بارز ذات مرة (ومن الدرجة الثالثة أيضًا) وقد أدهشني هذا التصرف من نفسي عندما أعدت التفكير فيه. فأنا أيضًا لم أكن أقبل شيئًا إلا إذا كان من الذهب أو الفضة، ومع هذا قبلت منها حجرًا عاديًّا ذا نقش بارز. وكانت هذه ثاني مرة فكرت في أمرها، وهذا شيء أتذكره جيدًا.
وفي تلك المناسبة، أعني بعد ذهابها إلى محل موزر، جاءتني بمبسم للسجائر من الكهرمان، ولم يكن رديئًا جدًّا في نظر من يتعاملون في ذلك الدرب من الأشياء، ولكنه - وأكرر هذا - لا قيمة له لدينا ونحن لا نتعامل إلا بالذهب. ولما كان ذاك اليوم هو اليوم التالي لتمردها، فقد استقبلتها بتجهم. والتجهم معناه بالنسبة لي الجفاف في المعاملة. ومع هذا، فعندما سلمتها الروبلين، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول لها بشيء يشبه الشكاسة:
- هذا شيء أصنعه من أجلك أنت. و"موزر" ما كان ليقبل منك مطلقًا شيئًا كهذا.
وكنت أضغط على كلمتي "من أجلك" بصفة خاصة، بحيث تفيدان معنًى خاصًّا أيضًا. وكنت متضايقًا، فاحمر وجهها هذه المرة أيضًا عند سماعها "من أجلك" ولكنها لم تقل شيئًا، ولم تلقِ النقود في وجهي، بل أخذتها. وهكذا يصنع الفقر بالناس! وما كان أشد احمرارَها فقد جرحت كبرياءها. أعلم هذا! ولما غادرتني سألت نفسي فجأة:
- أكان انتصاري عليها يساوي الروبلين حقًّا؟
ها ها ها! إني أتذكر توجيهي هذا السؤال لنفسي مرتين:
- أهو يساوي روبلين؟ هل انتصاري عليها يساوي روبلين؟
وأجبت نفسي ضاحكًا بالإيجاب، فقد ضحكت كثيرًا عندئذ. ولكنه كان ضحكًا خاليًا من الخبث والشر. فقد كان لتصرفي دافع، وقد أقدمت عليه قصدًا وعن

عمد لأني أردت أن أختبرها، فقد شرع عقلي يعمل بشأنها في اتجاه معين، وكانت هذه ثالث مرة يدور تفكيري حولها بصورة خاصة.
... حسنًا! هكذا بدأت المسألة كلها. وغني عن البيان أنني شرعت على الفور أفتش عن كل أحوالها وما يتصل بها خلسة، ورحت أنتظر حضورها بصبر نافد. وكنت أشعر في قرارة نفسي أنها لا بد عائدة قريبًا.
ولما عادت دخلت معها - بكل تهذيب - في حديث لطيف. وأنا كما تعلم قد حظيت بتربية غير رديئة، وسلوكي مهذب... وفي ذلك أدركت أنها لطيفة وديعة. واللطفاء والودعاء قليلو المقاومة. ومع أنهم لا يتخلون عن تحفظهم أبدًا، فإنهم لا يستطيعون تجنب الدخول في حديث. قد يجيبون باقتضاب، ولكنهم يجيبون على كل حال. وكلما أمعنت في الأسئلة استفاضت إجاباتهم. والمهم عندئذ أن تواصل الحديث - إن كان الأمر يعنيك - وهذا كل شيء.
ولم تخبرني بالطبع أي شيء عن نفسها في ذلك الحين. وفيما بعد عرفت كل شيء عن صحيفة "الصوت" كما عرفت كل شيء آخر. وكانت تنفق آخر ما تملكه في تلك الإعلانات، التي تصيغها في البداية بتعالٍ:
- مربية تطلب عملًا. لا مانع لديها من السفر. أرسل شروطك بخطاب.
ثم في المرة التالية:
- مستعدة لقبول أي عمل: معلمة، مرافقة، مدبرة بيت، ممرضة أو عاملة حياكة.
وهكذا توالت الصيغ، بالصورة المعهودة، وشيئًا فشيئًا انتهت عندما أطبق عليها اليأس إلى القول بأنها لا تطلب مرتبًا. الإقامة والطعام فقط.
ومع هذا لم تجد عملًا. وعندئذ قررت أن أختبرها الاختبار النهائي، وتناولت صحيفة "الصوت" الصادرة ذلك اليوم، وأشرت لها إلى إعلان يقول:
- سيدة شابة بدون روابط أسرية تطلب عملًا كمربية أطفال، وتفضل أن يكون العمل لدى أرملة متقدمة في السن. ومستعدة للقيام بمهام منزلية.
وعلقت عليه بقولي:
صاحبة هذا الإعلان أعلنت هذا الصباح ولعلها تحصل على عمل في ليلتها هذه! فهكذا تكون الإعلانات.
فاحمر وجهها، واتقدت عيناها مرة أخرى، وأشاحت عني ثم انصرفت على الفور. وراقني هذا منها كثيرًا جدًّا. ومع ذلك كنت شديد الثقة والجرأة، فلا أحد سواي يمكن أن يقبل منها مباسم السجائر. بل إن مباسم سجائرها قد نضب معينها، وكنت في تخميني على صواب، فقد عادت بعد يومين ظاهرة الشحوب والاضطراب. فخمنت أنها واجهت متاعب في البيت، وكان هذا صحيحًا.
وسأوضح الآن فورًا ماذا كانت هذه المتاعب. ولكني أريد أولًا أن أذكر كيف جعلت نفسي أبدو بارعًا تمامًا في نظرها وقتئذ. بحيث أخذت قيمتي ترتفع لديها وقد فعلت هذا بوحي اللحظة. فقد كان الشيء الذي أحضرته لي هذه

المرة إحدى أيقوناتها كي أرهنها (اضطرت إلى ذلك اضطرارًا)... والآن اسمع. أصغِ جيدًا، فسوف أقص عليك ما حدث بحذافيره الآن، فأنا أخلط بين الأمور، بحيث يختلط في سردي كل شيء. وما أريد قوله هو أنني أريد سرد كل شيء الآن بكل تفصيلاته، بالغة ما بلغت دقتها. وكم أجتهد في تركيز أفكاري فلا أستطيع هذا، والسبب في هذا كله كل هذه الأشياء الصغيرة، المتناهية الصغر.
لقد كانت الأيقونة تمثل العذراء المقدسة تحمل وليدها. وهي أيقونة عائلية عتيقة، لها إطار مطلي بالذهب، ولنقل إن قيمتها ستة روبلات. واستطعت أن أتبين أن الأيقونة تعني لديها الشيء الكثير، ولكنها كانت تريد أن ترهنها سليمة من غير أن تنتزع إطارها، فقلت لها:
- يستحسن أن تتركي الإطار عندي، تأخذي الأيقونة إلى البيت، لأن رهن الأيقونة شيء لا يليق.
- ولماذا لا تسمح قواعدك بهذا؟
- كلا. إنها ليست القواعد، بل كنت أفكر أنه ربما كان الأفضل لك...
- حسنًا جدًّا. اخلعها.
- فقلت بعد شيء من التفكير:
- اسمعي. سوف لا أخلعها، بل سأضع الأيقونة في صندوق الأيقونات هناك، مع بقية الأيقونات، وراء القنديل (فقد كان عندي دائمًا قنديل موقد أمام الأيقونات منذ بدأت ممارسة المهنة). وسأعطيك عنها عشرة روبلات.
- لا حاجة بي لعشرة. أعطني خمسة فقط، وسوف أستردها بالتأكيد.
- ألا تريدين العشرة؟ إن الأيقونات تساوي هذا القدر.
ولا حظت أن عينيها اتقدتا مرة أخرى، ولم تعلق بشيء، فأعطيتها الروبلات الخمسة، وأنا أقول لها:
- لا تزدري الناس. فقد كنت شخصيًّا في ضائقات من هذا النوع يومًا ما، أو لعلها كانت أسوأ. ولئن كنت ترينني أمارس هذا العمل الآن، فما هذا إلا بسبب كل ما مر بي من محن...
فقاطعتني فجأة قائلة:
- أأنت إذن تثأر لنفسك من المجتمع؟
وكانت عبارتها لاذعة، ولكنها شديدة السذاجة (أعني أنها كانت مبرأة من الخبث والرغبة في الإيذاء عمومًا، لأنها بالتأكيد لم تكن تميزني وتفردني من قطيع المرابين، ولذا لم أكد أتبين في كلماتها ضراوة).
وقلت في نفسي عندئذ:
- ها ها! أأنت إذن على هذه الشاكلة؟ هذه بوادر سمات شخصية، لها ألوان وظلال جديدة...
وسرعان ما قلت في لهجة نصفها مزاح ونصفها مغلف بالغموض:
- بل إني كما ترين جزء من هذا الكل الذي يريد أن يصنع الشر ولكنه يصنع الخير ويسديه...

وعلى الفور رمقتني بنظرة فضول كانت أشبه ما يكون بنظرة فضول الطفل وقالت:
- انتظر لحظة... كلمات من هذه؟ أين وردت؟ لقد سمعتها في موضع ما.
- لا تجهدي ذهنك. إنها من كلام "مفستفيليس وهو يقدم نفسه إلى فاوست.
هل قرأت فاوست؟
- كلا... لم أقرأه بعناية...
- وبعبارة أخرى لم تقرئيه قط. ينبغي حقًّا أن تقرئيه. ولكن هأنذا أرى شفتيك تتقلصان احتقارًا مرة أخرى. ولكن أرجوك ألَّا تظني بي فساد الذوق بحيث أحاول تغطية دوري كمرابٍ بتقديم نفسي لك في صورة مفستفيلس. فالمرابي يظل دائمًا مرابيًا. وهذا شيء أعرفه جيدًا.
- أنت غريب الأطوار حقًّا... فأنا لم أقصد شيئًا كهذا.
وأرادت أن تقول:
- أنا لم أتوقع منك أن تكون رجلًا متعلمًا.
ولئن لم تقل هذا، إلا أنني كنت أدري أن هذا هو تفكيرها. وقد أحست دهشة لطيفة لهذه المفاجأة، وقلت لها:
هأنت ترين إذن أن المرء يستطيع أن يصنع الخير في أي درب من دروب الحياة. ولست أعني بهذا نفسي بطبيعة الحال، فأنا شخصيًّا لا أصنع شيئًا سوى الشر، ولكن مع هذا...
فقالت بنظرة فهم سريعة رمقتني بها:
- طبعًا في وسع المرء أن يصنع الخير ويسديه في أي موقف وفي أي موقع...
وسكت لحظة ثم أردفت فجأة:
- نعم.. في أي موقع.
آه. لكم أتذكر بوضوح كل هذه اللحظات! وأريد أيضًا أن أقول إن الشباب، أحبائنا الشباب صغار السن، عندما يريدون قول شيء بارع جدًّا وعميق الفهم، تنطق أساريرهم بكل بوضوح بما معناه.
- هاكم! إني أقول الآن شيئًا بارعًا جدًّا وينطوي على عمق فهم.
وهذا ليس نابعًا من الغرور، لأن الناس الذين من طراز يقدرون هذه البراعة حق تقديرها، ويصدقونها، والشباب أيضًا يدركون أنك تقدرها حق قدرها، واها للإخلاص والصدق أمضى أسلحتهم! وكان إخلاصهم الصادق بالذات وهي تتكلم آية في السحر والفتنة!
إني أتذكر هذا كله، ولم أنسَ منه شيئًا. وعندما انصرفت، كان قراري قد قرَّ واستقر. وفي ذلك اليوم بالذات شرعت في اختتام استقصاءاتي كي أصل إلى ما تبقى من أسرار وخفايا حياتها.
وكنت قد عرفت أسراره السابقة من ليوكيريا، وهي كانت تعمل في خدمتهم في ذلك الحين، وكنت قد رشوتها قبل هذا ببضعة أيام، وكانت هذه الأسرار مروعة جدًّا، بحيث لا أستطيع أن أفهم كيف استطاعت أن تحمل نفسها على

الضحك، وأن يستولي عليها الفضول بشأن مفستفيليس وكلماته التي تفوهت بها، على حين كانت أرزاؤها بهذه الفظاعة. ولكن هذا هو حال الشباب!
لقد كان هذا ما انصرف إليه تفكيري في أمرها عندئذ، وأنا أشعر بالفخر والفرح، لأنها كانت رحبة آفاق النفس، صلبة العود، سمحة، بحيث تقول:
- قد أكون على شفا الخراب، ولكني أقدر ما في كلمات جوته من تألق.
وهكذا الشباب مقترن دائمًا بهذه السماحة وهذا التجلد، إذا انحرف وضل سواء السبيل.
وأهم ما في الموضوع أني كنت فعلًا أنظر إليها على أنها "ملكي" بحيث يساورني الشك في سلطاني. أتدري أنه شيء بديع حقًّا أن تشعر أنك لم تعد فريسة للشك؟
ولكن ماذا أنا بصدده الآن؟ لو مضيت على هذه الوتيرة فلن أفلح في تركيز أفكاري في بؤرة واحدة. أسرع. أسرع. فكل هذا خارج صميم الموضوع، بحق السماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (2)

# عرض زواج

سأوضح الآن "الأسرار" التي اكتشفتها بشأنها في كلمة واحدة: كان أبوها وأمها قد ماتا قبل ذلك بثلاث سنين. وتركاها لعمتين لها مسكينتين لا حول لهما ولا حيلة. وهذا الوصف دون الواقع، أو هو وصف مخفف للغاية... فإحداهما كانت أرملة ذات أسرة كبيرة العدد، كان لها ستة أطفال، كل منهم أصغر من الآخر. وهناك عمة أخرى عانس، عجوز سيئة. بل كلتاهما كانتا سيئتين. وكان والدها موظفًا مدنيًّا، مجرد كاتب صغير، ورتبة النبالة التي يتمتع بها كانت مجرد منحة، لا أكثر.

وبإيجاز شديد كان هذا كله لمصلحة، أو ورقة لعب رابحة في يدي. فأنا إذن آتي إلى هذه الأسرة من مستوى أعلى، من عالم أفضل. فأنا بعد كل شيء نقيب متقاعد من أورطة مشهورة ذائعة المكانة، ونبيل بحكم مولدي، وذو موارد مستقلة وما إلى هذا كله. وأما من حيث محل الرهونات فعمتاها لا يمكن أن تشعرا نحوه إلا بكل احترام.

وقد ظلت في عبودية تامة لعمتيها ثلاث سنين، ومع هذا استطاعت أن تجتاز امتحاناتها المدرسية على نحو ما. استطاعت هنا، برغم ما كان مفروضًا عليها من الكد والكدح. وهذا يدل يقينًا على تشوقها وتطلعها إلى ما هو أرقى وأنبل مما هي فيه!

إن السبب الذي جعلني أريد الزواج منها... ولكن دعنا مني أنا... فهذا موضوع يمكنه أن ينتظر. وهل هذا يهم؟ لقد كانت تعلم أبناء عمتها، وتصنع لهم ثيابهم. وقررت في النهاية أنه لم يكن عليها أن تغسل ثيابهم أيضًا فحسب، بل كانت تحك الأرضيات أيضًا، ورئتاها بهذه الحالة! وبصراحة كانوا يضربونها ويضنون عليها بالقوت. وانتهى بهم الأمر إلى الرغبة في بيعها. سحقًا لهذا كله. سأترك جانبًا التفصيلات البغيضة. وهي التي أخبرتني بكل شيء فيما بعد. فقد كان هناك صاحب دكان بدين مجاور لهم يرقب هذه الأمور كلها منذ سنة كاملة. ولم يكن تاجرًا عاديًّا، لأنه كان يمتلك دكانين للبقالة. وقد شيع من قبل زوجتين له إلى القبر. وهو الآن يقلب بصره بحثا عن الزوجة الثالثة. وقال في نفسه:

- إنها فتاة هادئة، تربت في الفقر، وأريد أن أتزوجها لتعول أولادي اليتامى!

وفعلًا كان له أطفال بحاجة إلى من يرعاهم. وتقدم الرجل بطلبه. وشرع هو والعمتان يعدان الترتيبات لإتمام الزواج (وكان الرجل في الخمسين) واستولى عليها الفزع. وكان ذلك في بدء مجيئها إلى محلي لتحصل على نقود لإعلانها في "الصوت". وأخيرًا توسلت إلى عمتيها أن تتركا لها فسحة من الوقت كي

تفكر في الأمر، ولو لبرهة قصيرة. واستجابتا لها ومنحتاها مهلة قصيرة جدًّا، رفضا تجديدها. وحولتا حياتها إلى جحيم من التعاسة:
- أنصبر شهرًا آخر نطعمك فيه، ونحن شخصيًّا لا نجد ما نقتات به!
وكنت أعرف هذا كله من قبل، وفي ذلك الصباح، بعد الحديث الذي ذكرته معها، كان رأيي قد استقر. وفي المساء جاء ذلك التاجر لزيارتها، حاملًا معه ما قيمته خمسين كوبكًا (نصف روبل) من الحلوى التي يبيعها في دكانه.
وكانت جالسة معه عندما ناديت خادمتهم ليوكيريا من المطبخ وطلبت منها أن تهمس في أذنها أني منتظر عند البوابة، وأن لديَّ شيء عاجل أقوله لها. وكنت مسرورًا جدًّا من نفسي. بل كنت منشرح الصدر طيلة ذلك اليوم.
وهناك، وفي تلك الساعة، عند البوابة، وفي حضور ليوكيريا، أخبرتها - مضيفًا بذلك الشيء الكثير إلى دهشتها لاستدعائي إياها أصلًا - أنه يسعدني ويشرفني إن هي... ثم طلبت إليها ألا تدهش لسلوكي، عرضي الزواج عليها عند البوابة، وقلت لها إني رجل مستقيم الأسلوب (دوغري)، وأني لست كذوبًا ولا غشاشًا. أوه! دعنا من التوافه... لم يكن كلامي لها مهذبًا فحسب - وهذا في حد ذاته دليل على حسن تربيتي - بل كان طريفًا أيضًا، وفيه أصالة، وهذا هو المهم. ولماذا لا يخلق بي أن أقول هذا وأعترف به؟ إني أريد أن أحاكم نفسي، بل إني بالفعل أحاكمها الآن. ولا بد لهذا أن أقول ما لي وما عليَّ. وهذا ما صنعته الآن.
لقد أخبرتها على الفور، وبدون تحرج، أنني أولًا وقبل كل شيء لست موهوبًا ولا بارعًا بصورة بارزة، ولعلني لست حنونًا رقيقًا بصفة خاصة. وقد أكون أنانيًّا مبتذلًا بعض الشيء (وأتذكر جيدًا هذا التعبير الذي خطر لي وأنا في الطريق إلى هناك وراقني كثيرًا!) وأنه قد يكون هناك الكثير مما يعد غير مستحب في صفاتي من جوانب أخرى.
قلت هذا كله بنوع خاص من الترفع. وكلنا نعرف كيف تقال مثل هذه الأشياء. وغني عن البيان أنه أتيح لي ما يكفي من حسن الذوق ما يجعلني أسرد قائمة بمزاياي بعد الإفضاء بمسالبي وعيوبي بصراحة تامة، فشرعت أقول لها:
- ولكن في مقابل هذا كله، من صفاتي أيضًا كذا وكيت...
ولكني تبينت أنها لا تزال خائفة مني إلى حد الرعب، إلا أني لم أخفف من غلوائي، بل على العكس، ما إن تبينت شدة خوفها حتى مضيت في كلامي بمزيد من الجد الصارم عمدًا، فقلت لها بلا مواربة إنها ستحظى بكفايتها من الطعام. أما الملابس المزركشة والأنيقة، وكذلك المسارح والمراقص، فلن يكون هناك شيء من هذا كله. وإن كان شيء من هذا قد يتاح لها فيما بعد، عندما أكون قد فرغت من تحقيق هدفي.
وكانت جهامتي الصارمة قد حرفتني، فأردفت بلهجة عرضية بقدر إمكاني، إنني وإن كنت مشتغلًا حاليًّا بمثل هذه المهنة، أدير محلًا للرهونات والربا، إلا

أن لي هدفًا أسعى إليه بكل طاقتي وهمتي، وأن هناك ظروفًا معينة... وكان من حقي أن أقول هذا. فأنا فعلًا لي هدف وتحيط به ظروف معينة...
لحظة واحدة من فضلكم أيها السادة. لقد كرهت محل الرهونات طول حياتي أكثر مما يمكن أن يبغضه شخص آخر في الدنيا. ومع أنه قد يكون من السخف أن يتحدث المرء إلى نفسه بعبارات مقنعة، فإنني في الحقيقة كنت "أثأر لنفسي من المجتمع". كنت هكذا! كنت هكذا! وهكذا كانت طعنتها أو وخزتها لي في ذلك الصباح بقولها: إنني "أثار لنفسي من المجتمع" خالية من العدالة. ذلك أنني لوقلت لها الآن بصراحة:
- نعم! إني أثار لنفسي من المجتمع!
لضحكت كما ضحك مني ذاك الصباح، ولبدا الأمر سخيفًا متناقضًا حقًّا. يضاف إلى هذا أني رأيت في تلك اللحظة أنه بوسعي أن ألعب على مخيلتها بتلميح غامض هنا، وعبارة غامضة هناك. وأكثر من ذلك كله أني لم أعد أخشى الآن شيئًا، لأني علمت أن التاجر البدين كان على كل حال يبدو لها أشد مدعاة للنفور مني، وأنني صرت محررها. وأزهاني هذا وسرني، فالإنسان شديد البراعة في تقدير الفرص الدنيئة، ولكن أكان هذا دناءة مني؟ كيف يمكن أن نحكم على أي إنسان؟ ألم أكن أحبها، حتى في تلك اللحظة؟
دقيقة واحدة من فضلكم! أنا بطبيعة الحال لم أشر ولو تلميحًا إلى كوني المحسن إليها في ذلك الحين. كلا، بل بالعكس، قلت لها إنني "أنا" المدين لها، وليست "هي" المدينة لي. قلته لها باللفظ الصريح. ولم أستطع منع نفسي من هذا. ولعل هذا الكلام بدا سخيفًا أو فيه شيء من الحمق، لأني لم أفطن إلى أي تغيير في تعبير محياها. ولكني بوجه الإجمال كنت الرابح بصورة حاسمة.
ولكن ما دمت بمعرض تذكرني كل هذه الخساسة، فلأذكر أيضًا هذه العينة الأخيرة من الدناءة التي أنزلت إليها، كنت واقفًا هناك وفي رأسي تدور هذه الأفكار:
- أنا طويل القامة، حسن النية، حسن النشأة والمنبت، وبدون مبالغة أو تبجح لست قبيح الشكل.
أجل كانت هذه أفكاري التي تدور في تلافيف مخي، وغني عن القول أنها قالت: "نعم"، قبل أن تبرح البوابة. ولكني يجب أن أذكرها هنا أنها لبثت واقفة عند البوابة تفكر مليًّا مدة طويلة قبل أن تقول: "نعم". وكانت مستغرقة في التفكير عندئذ، حتى أنني كنت على وشك أن أقول لها:
- ما رأيك؟
ولكني لم أستطع أن أزود التبجح عن لهجة كلامي وصوتي وأنا أقول لها:
- هيه؟ ما رأيك الآن فيما قلت؟
فقالت:
- انتظر. إني أفكر!

وكان محياها العذب شديد الجد، وكان في مقدوري أن أقرأ ما ارتسم على أساريرها في ذلك. ولكني كنت مبلبلًا مرتبكًا، أقول في نفسي:
- أمن الممكن أن تكون في حيرة إلى هذا الحد في الموازنة بيني وبين التاجر البدين؟
أوه! لم أفقه شيئًا على التحديد عندئذ. لم أفقه شيئًا على الإطلاق. بل لم أزل عاجزًا عن الفهم حتى اليوم.
وأتذكر جري ليوكيريا ورائي عندما استدرت منصرفًا، فاستوقفتني قائلة وهي تلهث:
- سيجزيك الله خيرًا يا سيدي الحنون العطوف، لأنك جئت تأخذ بيد آنستنا الصغيرة العزيزة، ولكن لا يقل لها هذا، فهي شديدة الكبرياء.
شديدة الكبرياء! أكذلك هي؟ كم أحب الفتيات الصغيرات المتكبرات. فالمتكبرات يكن من أحسن ما يمكن عندما... عندما لا يخالجك شك في سلطانك عليهن! إيه؟ يا لي من رجل دنيء جلف!
ما أشد سروري واستمتاعي بما سمعت! أتدروني ما الذي كان لعله يدور برأسها وهي واقفة هناك هذه المدة الطويلة عند البوابة تفكر مليًّا قبل أن تفوه بكلمة: "نعم"؟ لقد حيرني وبلبلني منها هذا التفكير الطويل العميق. ولكن لعلها كانت تقول لنفسها:
- ما دامت التعاسة تنتظرني في الحالين، أفلا يكون الأفضل أن أختار الأسوأ على الفور، أي التاجر البدين، كي يضربني حتى الموت كلما ثمل. وكلما كان هذا أسرع كان أفضل!
إيه؟ خبروني بربكم، أكانت حقًّا تفكر على هذا النحو؟
إنني لم أزل حتى عاجزًا عن الفهم. لست أفهم شيئًا على الإطلاق، حتى هذه اللحظة! لقد قلت لعلها كانت تفكر على هذا النحو، مفضلة أسوأ الشرين، أي التاجر البدين. ولكن من الذي بدا لعينيها أسوأ الشرين حينئذ؟ التاجر أم أنا؟ التاجر أم المرابي الذي يستشهد بجوته؟ يا له من سؤال.
ولكن أي سؤال؟ حتى هذا لا أفهمه كثيرًا. هاكم إجابة السؤال مسجاة على المائدة، فأي سؤال هذا؟ ودعكم مني على كل حال. فالمسألة لا تتعلق بي إطلاقًا. ما الذي يعنيني الآن سواء تعلق الأمر بي أم لم يتعلق. هذا شيء لا يمكنني شخصيًّا أن أفصل فيه. ولعل الأجدر بي أن آوي إلى فراشي. فما أشد ما أجده من ألم وصداع...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# (3)
# أنبل البشر

وإن كنت لا أصدق ذلك حقًّا
لم أستطع النوم. وكيف كان يمكن أن يواتيني النوم وهذا النبض لا يفتر عن الدق في دماغي. أريد أن أستوعب كل شيء، كل هذه الخساسة! الخساسة حقًّا! تلك الخساسة التي أنقذتها منها حينئذ. أكان ينبغي عليها أن تفهم قطعًا وتقدر صنيعي؟ وانغمست أيضًا في أفكار مختلفة لطيفة من قبيل أنها كانت في السادسة عشرة من عمرها فحسب، في حين كنت أنا في الحادية والأربعين. قد استهواني هذا التباين وسري عني. سري عني كثيرًا جدًّا.
وكنت قد أردت أن يكون عقد قراننا على الطريقة الإنجليزية، أي لا يتجاوز حضورنا نحن الاثنين ومعنا شاهدان، لا بد أن تكون ليوكيريا أحدهما، ثم نتوجه مباشرة إلى القطار الذي ينطلق بنا إلى موسكو (وكان عندي بالصدفة عمل لا بد من إنجازه هناك). وننزل في موسكو بفندق ولمدة أسبوعين أو نحو ذلك. ولكنها اعترضت على هذا، ولم تسمح به إطلاقًا، وهكذا اضطررت أن أقوم بزيارات مجاملة لعمتيها، على النحو الذي يتبعه عادة من يريد التقدم لخطبة فتاة من والديها. ونزلت على رغبتها هذه، وحظيت العمتان منهما على حقهما الكامل وزيادة.
أجل، لقد ذهبت إلى حد إعطاء كل من هاتين العجوزين مئة روبل، ووعدتها بالمزيد في المستقبل. ولم أخبرهما بشيء من هذا كله بالطبع، حتى لا أجرح شعورها بما في هذه الأمور من وضاعة ودناءة. وعلى الفور ثابت العمتان إلى الوداعة والدماثة.
ونشب نقاش وجدل حول جهازها أيضًا. فلم يكن لديها أي شيء، أو لا شيء تقريبًا، ولكنها لم تكن تريد وقتئذ أي شيء. وصممت على ذلك، فكنت أنا الذي أقنعتها أن هذا لا يليق، وقدمت لها ما يلزمها في هذه المناسبة من الجهاز، فمن سواي كان عساه يقوم بهذه المهمة.
ودعنا من هنا. لقد أخبرتها مع ذلك، في ذلك الحين، ببعض ما لدي من أفكار، لتكون لديها لمحة عنها على الأقل، ولعلني كنت متسرعًا بعض الشيء في هذا الشأن. ولكن المهم في الموضوع كله أنها حضرت للزيارة في المساء. وهي تثرثر بمرح وسعادة (ثرثرة كالثغاء أو البغام البريء الساحر!) عن طفولتها، وعن بيت والديها، وعن أبيها وأمها. ولكني صببت على الفور ماء باردًا فوق هذا الحبور وتلك النشوة من جانبها. وقد أملى عليَّ هذا السلوك الحازم الصارم ما اختمر عندي من تفكير سابق. فلم أستجب لحماستها إلا بالصمت... الصمت المهذب طبعًا... طبعًا... ولكنها مع هذا سرعان ما فطنت

إلى أننا مختلفان، وأنني لغز! وكان هذا الانطباع هو ما أصبو إليه بأي ثمن! مسلكي كله معها كان موجهًا لتحقيق هذه الغاية بالذات. فالصرامة الحادة أو الجد الصارم يأتي قبل كل شيء.
وقد احتفظت بهذا المظهر الصارم إلى ما بعد القران. ومجمل القول إنني برغم رضاي التام كنت أتصرف طبقًا لهذه الخطة التي كنت أنفذها بدون أي مجهود من جانبي. لأنها كانت تصدر مني تلقائيًّا، بحيث لم يكن في وسعي أن أصنع شيئًا خلاف ما أصنع.
وقد اضطررت لهذه الخطة بسبب ظرف خارق للعادة. ظرف استثنائي. ولكن ما هذا الكلام الذي أكدس به التشنيع فوق رأسي؟ لقد كانت الخطة صحيحة صائبة. كلا. كلا! أصغوا لي، لأنكم ينبغي أن تعلموا الظروف إذا كنتم بسبيل الحكم على أي شخص... فاسمعوا إذن.
لست أدري كيف أبدأ، لأن المسألة كلها صعبة جدًّا، وهي أشد صعوبة عندما يهم المرء بالدفاع عن قضيته شخصيًّا. وأنتم تعرفون الوضع المبدئي للقضية كلها، وهو أن الشباب يحتقر المال مثلًا، ولذا ركزت كل جهودي على جمع المال، وصرت لا أتكلم إلا عنه، بحيث اضطرت هي في النهاية أن تلوذ بالصمت شيئًا فشيئًا. كانت تفتح عينيها الكبيرتين على سعتهما، وتسمع، وتنظر، وتلوذ بالصمت.
والشباب أسخياء ومندفعون، أعني الأخيار الصالحين منهم، ولكنهم يفتقرون إلى التسامح، ومتى قصروا عن الشأو الذي يتوقعونه أو يصبون إليه، انقلبوا ساخطين. وأنا كنت أريد سعة الأفق والسماحة. كنت أريد أن أغرس سعة الأفق في صميم قلبها، في صميم وجهة نظرها القلبية المخلصة. أفهمتم ما أريد قوله؟ سأقدم لكم مجرد مثل ساذج لما كنت أريده، كيف كان يتسنى لي أن أفسر محل رهنياتي لفتاة من نوعها؟ أنا طبعًا لم يكن في استطاعتي أن أبوح لها بكل شيء مرة واحدة، لأنني كنت خليقًا أن أبدو عندئذ في صورة من أقدم المعاذير لمحل رهنياتي وألتمس له المبررات، ولذا لذت بالصمت المتكبر في هذا الشأن، أي أنني كنت أتكلم في هذا الموضوع بلغة الصمت. وأنا أستاذ بارع في التكلم بلغة الصمت! فقد قضيت عمرًا بأكمله أتحدث بلغة الصمت، وعشت ومررت بدرامات كاملة منفردًا بنفسي في صمت...
أوه! أنا أيضًا عرفت أوقات التعاسة وفترات الشقاء. نبذني الجميع. نبذوني ونسوني، ولا أحد على الإطلاق. يعرف شيئًا عن هذا كله. ثم تأتي هذه البنية "المسخوطة" فتلتقط النقولات من فم هذا الوغد أو ذاك، ثم تعتقد أنها عرفت كل شيء، مع أن كل شيء مما له أهمية ظل حبيسًا في هذا الصدد دون سواه!
لقد لذت بالصمت. وتعمدت أن أظل صامتًا معها طول الوقت، حتى يوم أمس. فلماذا فعلت هذا؟ لماذا أصررت على الصمت؟ كبريائي هي السبب. لأني كنت أريد أن تكتشف هي بنفسها ولنفسها، بدون تدخل مني، وطبعًا

بدون الاعتماد على تقولات الأوغاد. كنت أريدها أن تعرف وتدرك أي رجل أنا، من تلقاء نفسها، وتفهمني على هذا الأساس.
وبما أنني جئت بها إلى بيتي - عروسًا - فقد كنت أريد أن تمنحني احترامها المطلق. كنت أريدها أن تهابني، وأن تأخذها الرهبة من معاناتي وآلامي. كان هذا حقي عليها...
أوه! لقد كنت دائمًا إنسانًا متكبرًا جدًّا. وكنت دائمًا أريد كل شيء أو لا شيء على الإطلاق!
ولأنني بالضبط كنت قد رفضت كل أنصاف الحلول في السعادة وأردت الحصول على كل شيء بالتمام والكمال لذا اضطررت إلى اتخاذ هذا المسلك، ألا وهو: "فتشي بنفسك واكتشفي لنفسك قيمتي الحقيقية وأعرفها تمام المعرفة".
ولا بد أن تقروا بأنني لو كنت دخلت في متاهة التفسيرات من تلقاء نفسي، متذللًا إليها ومستجديًا احترامها، لكان موقفي بالضبط كموقف من يستجدي الصداقة أو الإحسان. ثم ما جدوى الكلام في هذا كله الآن؟
إنها لحماقة! حماقة! لقد وضحت لها بصراحة وقسوة حينئذ (وأضع خطًّا تحت كلمة بقسوة) في ألفاظ قليلة إن السخاوة في الشباب لها سحرها وفتنتها، ولكنها في الحقيقة لا تساوي شيئًا. ولماذا لا تساوي شيئًا؟ لأنها شيء يمكن اكتسابه بأرخص الأثمان، لأنها شيء وهب لهم قبل أن يشرعوا في الحياة. فهي ليست إلا "الانطباعات الأولى للحياة" كما يقولون. ولكني أحب أن أراهم يمارسونها ويطبقونها أولًا.
إن السخاوة الرخيصة سهلة المنال دائمًا، لأنها ليست سوى الدماء الشابة أو الطاقة الحيوية التي تلتمس لنفسها مخرجًا ومتنفسًا، إنها الرغبة الجارفة الحارة في صنع شيء جميل المظهر.
أوه! لا. حاولي الآن أن تجربي سخاوتك في مهمة صعبة، خفية عن الأنظار، وبمنجاة من الأسماع، ولا يلحق تحقيقها أو إنجازها بريق المجد. بل تحيق بك من جرأتها السمعة السيئة والتضحية الجسيمة، ولا أبهة ولا رونق فيها على الإطلاق. مهمة تضفي عليك - وأنت الطاهرة النقية الصفحة - كل صفات الأوغاد الأخساء في نظر العالم أجمع، في حين أنه ليس على وجه الأرض كلها من يدانيك أمانة وشرفًا. لكم أتمنى أن أراك في مهمة من هذا القبيل. ولكن لا. إنك خليقة عندئذ أن تنكصي عنها!
أما أنا، فكنت طيلة حياتي في مهمة من هذا النوع. ولم أكن شيئًا سوى هذا على امتداد عمري كله. وهذا هو الفرق بيننا!
وقد جادلتني في بادئ الأمر، بكل حرارة وحمية، ثم قل شيئًا فشيئًا ما تجادلني به، إلى أن لاذت بالصمت تمامًا. وكل ما هناك أنها اكتفت بفتح عينيها على سعتهما - وإنها لسعة رهيبة! - وهي مصغية لما أقول. آه! يا لعينيها من مرقبين كبيرين تحصيان كل شاردة وواردة.

بل هناك أكثر من هذا! لقد ضبطت فجأة ابتسامة لاحت على محياها. ابتسامة حذرة، صامتة، ابتسامة سيئة. وكانت تفتر عن هذه الابتسامة عندما أتيت بها إلى بيتي. ولكن هذا كان صحيحًا أيضًا أنه لم يكن لديها أي مكان آخر تلجأ إليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (4)
# خطط، ولا شيء سواها

أينا - نحن الاثنين - كان البادئ؟
لا أحد!
لقد بدأت المسألة من تلقاء نفسها في مستهلها الأول. وقد ذكرت لكم آنفًا أنني كنت قد تصنعت الصرامة عندما أتيت بها إلى بيتي. ولكني لم ألبث أن خففت من هذا على الفور. وكان قد قيل لها قبل القران إنها قد تحل محل الرهنيات، حيث تتقبل الأشياء المقدمة بصفة رهائن، وتتولى تسليم مقابلها النقدي للناس، ولم تبدِ أي اعتراض في ذلك الحين (لاحظوا هذا!). وأكثر من هذا أبدت حماسة وبراعة في معالجة هذا العمل فعلًا. وبطبيعة الحال ظلت الحجرات والأثاث بأجمعه كما هي بدون تغيير. وكانت هناك حجرتان، إحداهما الحجرة الكبيرة الأمامية وفيها فاصل يحدد محل الرهنيات. والحجرة الأخرى كبيرة أيضًا. وهي حجرتنا الخاصة، التي تستخدم مخدعًا للنوم وحجرة معيشة في الوقت نفسه.
والحق أن الأثاث كان فقيرًا جدًّا، بل إن أثاث عمتيها نفسه كان أفضل منه. وكان رف الأيقونات التي أمامها القنديل المشتعل باستمرار في الحجرة الأمامية حيث محل الرهنيات. وفي الحجرة الأخرى - بالداخل - كانت توجد مكتبتي، وبها عدد قليل من الكتب. ويوجد أيضًا صندوقي الذي أحتفظ بمفاتيحه، ومعهما الفراش والمناضد والكراسي بطبيعة الحال.
وكنت قد أخبرتها قبل القران أنني خصصت اعتمادًا مقداره روبلًا واحدًا في اليوم لطعامنا، ولن أسمح بتجاوز هذا الاعتماد. وأعني بطعامنا طعامي وطعامها وطعام ليوكيريا، التي نجحت في إغرائها بترك خدمة العمتين إلى خدمتي. ووضحت لها أنني لا بد أن أدخر ثلاثين ألف روبل في ثلاث سنوات، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا الادخار. ولم تبدِ أي اعتراض على هذا أيضًا. ومع ذلك زدت الاعتماد بمقدار ثلاثين كوبكًا في اليوم من تلقاء نفسي وعن طيب خاطر. وحدث مثل هذا فيما يتعلق بالمسرح. فقد كنت قلت لها قبل القران إننا لن نذهب إلى المسرح، ومع هذا ذهبنا إلى المسرح، وحددت ذلك بمرة واحدة في الشهر، من تلقاء نفسي أيضًا، وفي أحسن سمت أيضا، في مقعدين من المقاعد الأمامية! وذهبنا حتى الآن ثلاث مرات، شاهدنا فيها "السعي وراء السعادة" و"الطيور المغردة!".. على ما أظن. (ولكن أي أهمية لهذا؟!) وكنا نذهب في صمت. ونعود في صمت.
ولكن لماذا؟ لماذا تذرعنا بالصمت منذ البداية الأولى لحياتنا معًا؟ فلم تكن هناك في البداية مشاحنات، كما تعلمون، ومع هذا كنا صامتين.

وفي أول الأمر كانت لها طريقتها الخاصة في اختلاس النظر إليَّ، ومنذ اللحظة التي فطنت فيها إلى هذا، زدت من صمتي. أجل إنه أنا الذي ذهب في الصمت إلى أبعد مدًى، وبالغ في التزامه به، وليست هي... أما هي فكانت لها اندفاعة في التعبير أو اندفاعتان، عندما ألقت بنفسها بين ذراعيَّ. ولكن هذه التفجرات كانت كئيبة وهستيرية، في حين كنت أنشد سعادة واثقة متينة، مقترنة بالاحترام من جانبها. لذا كانت استجابتي لها باردة! وكنت في هذا على حق، لأن هذه التفجرات كانت تعقبها حتمًا مشاحنات في اليوم التالي مباشرة.
والواقع أنها لم تكن مشاحنات حقيقية، بل فترات من الصمت مرة أخرى، مشفوعة بمزيد من الوقاحة من جانبها. كانت تنطوي على "تمرد واستقلال"، وكل ما هناك أنها لم تكن تدري كيف تبدي هذا على وجهه الصحيح.
أجل، اتخذ محياها الوديع مزيدًا من سمات الوقاحة. والحقيقة أني كنت قد صرت بغيضًا في معاملتي إياها. وكنت أدرس هذا بعناية، كما تعلمون. ثم لم يكن هناك أدنى شك في أن تفجراتها كانت تجرفها بغير إرادتها. فكيف أمكنها - مثلًا - أن تشرع فجأة في الزراية المستخفة بفقرنا، بعد القذارة والمسغبة التي جاءت منها، حيث كانت تحك الأرضيات، وما إلى ذلك كله؟
لا بد أن يكون واضحًا لكم أن ما نحن فيه لم يكن فقرًا، بل كان اقتصادًا. بل عند الضرورة كانت تتوفر لنا مقومات الترف، في الملابس الداخلية مثلًا وفي النظافة. وكنت دائمًا أتصور أن نظافة الزوج تروق في عين زوجته.
فلم يكن إذن فقرنا هو الذي هزأت به وتهكمت عليه، بل شحي المزعوم... وكانت تقول في نفسها:
- إن له هدفًا إذن، أليس كذلك؟ إنه بهذا يبدي قوة طبعه.
وفجأة ألغت من تلقاء نفسها ذهابنا إلى المسرح، وصار ازدراؤها أشد وضوحًا من ذي قبل. وصرت أنا صمتًا. ولججت في الصمت حتى النهاية.
ولكن لماذا ألتمس الأعذار لنفسي؟ إن لباب المسألة يكمن في محل الرهنيات. ولكن أعيروني أسماعكم. أنا لم أكن أجهل أن امرأة - وفتاة في السادسة عشرة من عمرها فضلًا عن هذا - لا يسعها إلا أن تخضع لإرادة الرجل. فليست في النساء أصالة. وهذا شيء بين بذاته. وهو بين لي أجل ما يكون البيان في هذه اللحظة أيضًا. فماذا في أنها مسجاة الآن على المائدة هناك. إن الحقيقة هي الحقيقة، و"ميل" (1) نفسه لا يمكن أن تكون له في هذا حيلة. والمرأة العاشقة. أوه! المرأة العاشقة خليقة أن تعبد رذائل، وجرائم الرجل الذي تحبه. وهو شخصيًّا لا يمكن أن أن تخطر بباله المبررات والمعاذير التي تتلمسها هي لجرائمه. وفي هذا سخاوة لا شك فيها، ولكن جد أصالة. إن الافتقار إلى الأصالة هو الذي قعد بطبيعة المرأة. فماذا في هذا؟ أقول ماذا لو أنك أشرت إلى تلك المسجاة على المائدة هناك؟ فهل ثمة أي شيء من الأصالة في تلك المسجاة على المائدة؟ أوه! أوه!

اسمعوا! لقد كنت على يقين من حبها حينئذ. لأنها كانت تَخِفَّ إليَّ وكأنها الطائر، كي ترتمي على عنقي أو لم تفعل ذلك؟ هي إذن كانت تحبني، أو على الأصح كانت تريد أن تحب.
أجل. هذه هي المسألة، كانت تريد أن تحب، وتتطلع إلى أحد تحبه، وأكثر من هذا لم تكن هناك جريمة واضحة لعينيها بحيث يمكنها أن تتلمس لها المعاذير.
تقولون إني مراب أقرض برهون، وكل الناس يقولون هذا عني. ولكن ماذا في أني مراتٍ أقرض برهون؟ طبعًا لا بد أن تكون هناك أسباب دفعت أشد خلق الله سخاوة إلى أن يحترف الإقراض برهون...
وهأنتم ترون أيها السادة أن هناك أفكارًا معينة... أعني أفكارًا لو أننا عبرنا عنها في كلمات لبدت آية في الغباء... ولأجفلت منها خزيًا. ولم هذا؟ هكذا. بلا سبب. لأننا جميعًا متعفنون ولا نستطيع أن نواجه الحقيقة أو نتحملها، أو لأي سبب آخر قد أجهله.
لقد قلت منذ قليل "أشد خلق الله سخاوة!" وهذا كلام يبدو واضحًا مضحكًا. ولكن هذه هي الحقيقة. حقيقة هي. وأحق الحق أيضًا! أجل، كان من حقي حينئذ أن أصبو إلى شيء من الضمان والأمان، وأفتتح هذا المحل للإقراض برهون، وأن أقول للناس:
- لقد نبذتموني جانبًا، وطردتموني بعيدًا بصمتكم المزدرى. وعندما كنت شديد الحماسة ناشدتكم وتقربت إليكم متوسلًا، فأجبتموني بإهانة تكفيني سائر حياتي. ولذا فأنا على حق في عزل نفسي خلف أسوار منيعة بعيدة عنكم، كما أدخر ثلاثين ألف روبل، تتيح لي الحياة في القرم، في موضع ما على الساحل الجنوبي، بين الجبال والكروم، في مزرعتي الخاصة التي اقتنيتها بالثلاثين ألف روبل. وأكثر من هذا وأفضل، أنني سأكون هناك بعيدًا عن متناولكم، ولكن بغير غل أو حقد أحمله لكم، منطويًا في سريرتي على مثل أعلى لا غبار عليه ولا ثلمة أو شائبة فيه، ومعي المرأة التي أحبها، قريبة من قلبي، ومعي أيضًا - بمشيئة الله - أسرتي الصغيرة، حيث أقضي أيامي في مساعدة جيراني من الفلاحين.
ولا ضير ولا بأس طبعًا في أن أقول هذا الكلام عن نفسي الآن، ولكن ألم يكن من أحمق الحماقة أن أبوح بهذا كله يومئذ، بصراحة، وجهرًا؟
ومن ثم ذلك الصمت المتكبر، ولذا عشنا في الصمت...!
أتراها كانت خليقة أن تفهم لو أنني جاهرتها بهذا كله؟ لقد كانت في السادسة عشرة، في باكورة الشباب، فماذا كان عساها أن تفقه من كل معاذيري ومبرراتي وآلامي؟
لقد كان هناك الغرام الصبياني بالصراحة والاستقامة، وقناعات الشباب الرخيصة، وعمى "القلوب النبيلة"، ولكن العامل الحاسم في هذا كله هو محل الرهون، وهذا مربط الفرس! (ولكن أكنت أنا نذلًا أو وغدًا في محل رهوني؟

ألم ترَ بعينيها الطريقة التي كنت أديره بها؟ وهل حدث قط أني عقدت صفقة جائرة؟ ([1]) يا لله! ما أفظع الحقيقة في هذا العالم!
لقد كانت هذه الوديعة، هذه العزيزة الصغيرة، هذه الفتاة السماوية طاغية جبارة دوخت روحي وعذبتها. ولأكونن مسيئًا إلى نفسي ظالمًا لها إن أنا لم أقل هذا صراحة.
أتظنون أني لم أكن أحبها؟ من ذا الذي يمكن أن يقول إنني لم أكن أحبها؟ هأنتم ترون أن الأمر كله كان سخرية شريرة من القدر ومن الطبيعة. فنحن الملعونون. أجل هناك لعنة حاقت بحياتنا جميعًا نحن الرجال (ولا سيما حياتي أنا). وأنا أفهم جيدًا الآن أنني كنت مخطئًا في شيء ما. فقد كانت خطتي واضحة وضوح الشمس في السماء.
- يجب أن يكون صارمًا ومتكبرًا ذلك الرجل الذي لا حاجة به إلى عون أخلاقي من أي إنسان، أو إلى عزاء منه، ويعرف كيف يتألم في صمت.
كانت هذه هي خطتي حقًّا. كلا. لم أكن متظاهرًا بشيء لا أعنيه. كلا!
- سترى بنفسها، ولنفسها، فيما بعد أن في هذا المسلك سخاوة، وكل ما هناك أنه فاتها إدراكها أو الفطنة إليها، ولكن متى فطنت إليها فلا بد أن تقدرها عشرة أضعاف ما فاتها من التقدير، وستصفق بيديها وتضمهما إلى صدرها متوسلة إلى أن أعفو عنها، وقد بلغت بها الذلة لهذه الهفوة أقصى مداها.
هذا ما يتعلق بخطتي. ولكن لا بد أنه كان هناك شيء أغفلته من بياني هذا، أو نسيت أن أصنعه. بل كان هناك شيء ينبغي أن أصنعه هناك ولكني لم أصنعه. ولكن حسبي هذا. فمالي من عساي أتوجه الآن لطلب الصفح والغفران؟ لقد انتهى الآن كل شيء. ومتى انتهى الأمر، فلا حيلة فيه. تشجع يا رجل، وفكر في كبريائك! فلا لوم عليك!
حسن جدًّا. سأقول الحقيقة. لن أنكص عن مواجهة الحقيقة، كان اللوم عليها هي. عليها هي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (5)

# الوديعة تتمرد

بدأت مشاحناتنا عندما نبت في رأسها فجأة أن تتولى هي تحديد القروض على طريقتها الخاصة، مبالغة في قيمة الأشياء التي يأتي بها الناس ليرهنوها. ومرة أو مرتين وصل بها الأمر إلى حد مجادلتي في الموضوع. وتشبثت بموقفي، وعندئذ ظهرت أرملة النقيب.

وهي امرأة عجوز. أرملة نقيب. جاءت لترهن مدلاة، كانت هدية تلقتها من زوجها الراحل، وهي من ذلك النوع المألوف من التذكارات. وأعطيتها ثلاثين روبلًا، فبدأت تنشج، وتنوح، وتتوسل إليَّ ألا أفرط فيها، وطبعًا قلت لها إني لن أفرط فيها. وفجأة عادت بعد خمسة أيام ومعها سوار لم يكن ليساوي ثماني روبلات لترهنه بدلًا من المدلاة. ورفضت بطبيعة الحال. ولا بد أن عيني زوجتي كانتا قد قالتا شيئًا ما، لأنها عادت مرة أخرى وأنا في الخارج، وتم لها استبدال السوار بالمدلاة.

ولما علمت بهذا في اليوم نفسه، كلمت زوجتي في الأمر بلطف ورقة، ولكن بحزم وسداد رأي، وكانت جالسة على السرير، تحدق في الأرض وتطرق البساط بقدمها اليمنى (وهي عادة تعودتها) وقد حومت على شفتيها ابتسامة شريرة.

وعندئذ، ومن غير أن أرفع صوتي إطلاقًا، قلت لها بهدوء إن النقود نقودي أنا، وأن من حقي أن يتم فيها التصرف على النحو الذي أراه، وأنني لم أخفِ عنها شيئًا كما تعرف جيدًا عندما عرضت عليها أن تشاركني بيتي.

ودفعة واحدة وثبت واقفة، وهي ترتجف من فرعها إلى قدمها - وصدقوا أو لا تصدقوا - بدأت تدق الأرض في وجهي بقدميها، وقد تحولت إلى وحش كاسر. أصابتها نوبة، فصارت حيوانًا كاسرًا انتابته نوبة. وبهت فلم أنطق من فرط الدهشة، لأني لم أتوقع تفجرًا كهذا قط. بيد أني لم أفقد حضور ذهني، ولم أتحرك قيد أنملة، وكررت عليها بنفس الصوت الهادئ، وبصراحة تامة، أنني لن أسمح لها بالمشاركة أو الإسهام في عملي بعد الآن. فضحكت مني في مواجهتي، وغادرت المسكن.

وكانت هذه هي الطامة، فلم يكن من حقها مغادرة المسكن. وليس لها أن تتحرك خطوة واحدة من غيري. وكنت قد شرطت عليها هذا قبل القران...

وعادت قرب المساء، ولم أقل شيئًا.

وفي وقت مبكر من صباح الغد خرجت مرة أخرى، وفي اليوم الذي يليه أيضًا فأغلقت الباب بالقفل محل رهنياتي وتوجهت لمقابلة عمتيها. وكنت قد

قطعت كل الصلات بهم بعد الزفاف مباشرة، فلا أنا استقبلتهم، ولا أنا زرتهم...
وعلمت منهما أنها لم تذهب إليهما... وقد استمعتا لما قلته بفضول شديد، ثم ضحكتا ساخرتين مني في وجهي وقالتا:
- تستحق ما حدث لك!
وكنت أتوقع سخريتهما، ولم أضيع وقتًا، فرشوت صغرى العمتين، وهي العانس بمئة روبل، نقدتها خمسة وعشرين روبلًا منها مقدمًا. وبعد يومين جاءتني لتقول لي:
- هناك ضابط، اسمه يفيموفتش هذا، له صلة بكل هذا، ملازم أورطتك التي كنت ضابطًا فيها...
ودهشت لأن يفيموفتش هذا كان ألحق بي أشد الأذى في أورطتي، ومنذ حوالي شهر بلغت به الوقاحة أن يدخل محل رهنياتي، مرتين لا مرة واحدة، زاعمًا أنه عميل، وأتذكر أنه في المرتين كان يثرثر ويضحك مع زوجتي. فتوجهت إليه على الفور وطلبت إليه ألا يتجاسر على العودة بسبب ما كان بيننا فيما مضى. ولكن لم يخطر لي شيء من هذا القبيل وقتئذ، وكل ما هناك ظننته فعل ذلك على سبيل الصفاقة.
وها هي عمتها تخبرني بأنها قابلته فعلًا بناءً على موعد بينهما للقاء، وأن كل هذه المسألة تمت على يد من تدعي "يولياسمسونوفنا" وهي صديقة قديمة للعمتين، أرملة، بل أرملة كولونيل (عقيد). وقالت لي أيضًا:
- إن زوجتك تهرب الآن كل يوم إليها...
وسأوجز في هذه النقطة، لقد كلفتني المسألة ثلاث مئة روبل كاملة، ولكن تم الاتفاق على أنني بعد يومين، عندما تحظى زوجتي بأول موعد لقاء "حميم" مع يفيموفتش، أن أكون أنا واقفًا وراء الباب في الحجرة المجاورة أصغي لما يقولان.
وقبل موعد ذلك اللقاء بيوم واحد حدثت بيننا مشادة كانت ذات مغزًى بالغ في نظري، رغم قصرها...
كانت قد أتت إلى البيت في المساء، وجلست على الفراش، وأخذت تطرق البساط بقدمها، وهي ترميني بنظرة تهكم، وفجأة... وأنا أنظر إليها، خطر لي أنها لم تكن كالعهد بها تمامًا، فهي الآن مخلوقة عنيفة، عدوانية. وقد لا يجوز لي أن أقول إنها صارت عديمة الحياء، بيد أنها على كل حال غير متزنة، وتواقة للثوران والهياج... أجل مخلوقة تسعى للهياج. ولكن وداعتها تقف حائلًا دون ذلك...
وعندما تتملك الثورة مخلوقة من طرازها، تستطيع أن تتبين أنها وإن تجاوزت كل حد، أنها لا تنفك تكره نفسها على هذا الاهتياج إكراهًا، وأنها شخصيًّا تخوض معركة خاسرة ضد طهرها وخجلها وهذا هو السبب في أن الوديعات

يجاوزن أحيانًا كل الحدود، مع أن ذكاء المرء يأبى تصديق ما يراه منهن بعيني رأسه.
إن المرأة التي تعودت التبذل تبدو على العكس وقد خففت من تفجراتها واندفاعاتها، وهي أحط فعالها، بيد أنها تحتفظ دائمًا بقناع مموه من الاحتشام تصبو للسيطرة المطلقة عليك.
وفجأة سألتني، وقد اتقدت عيناها وقدح منهما الشرر:
- أصحيح أنهم طردوك من أورطتك لأنك كنت أجبن من أن تقاتل من تجب عليك مبارزته؟
- هذا صحيح. لقد طلبت مني محكمة الضباط أن أغادر الأورطة، ولكني في الواقع كنت قد أرسلت أوراقي - مستقيلًا - قبل ذلك القرار فعلًا.
- بل طردوك لأنك جبان!
- نعم. إن قرارهم تضمن أني جبان. ولكني في الحقيقة رفضت أن أخوض هذه المبارزة لا لأنني جبان، بل لأنني لم أرد أن أطيع قرارهم الاستبدادي الجائر فأتحدى للمبارزة شخصًا ما وأنا لا أعد نفسي ضحية إهانة.
ولم أستطع أن أمنع نفسي من الاستطراد على أثر ذلك قائلًا لها:
أؤكد لك أن تحدي مثل هذا الطغيان، وتقبل كل ما يترتب على هذا التحدي من النتائج، اقتضى مني شجاعة تفوق بكثير جدًّا خوض أي مبارزة في العالم...
أجل لم أستطع كبح هذه الكلمات، ورنت في أذني وكأنني أحاول بها تبرير نفسي، وكان هذا الهوان الجديد هو ما تريده لي بالضبط، فضحكت ضحكة خبث وشر. وقالت:
- وهل صحيح أيضًا أنك ظللت تذرع شوارع سانت بطرسبرج بعد ذلك على مدى ثلاث سنوات تستجدي فيها الأكف وتنام تحت مناضد البلياردو في الليل؟
- لقد أويت إلى ميدان سنايا وملجأ فيازمسكي للمبيت هناك. أجل، هذا كله صحيح، لأنني بعد مغادرة الأورطة عانيت الكثير من العار والهوان، ولكني لم أشعر بأي انحطاط خلقي أو معنوي، لأني شخصيًّا كنت أستنكر ما وصلت إليه حالتي حينئذ. كان الانحطاط في إرادتي وعقلي فحسب، لا في خلقي، وكان المسئول الوحيد عن ذلك ما أنا فيه من وضع يائس، ولكن هذا مضى وانقضى...
- آه، طبعًا. أنت الآن شخصية بارزة... من رجال المال!
وكان هذا تلميحًا إلى محل الرهون. ولكني أسرعت إلى التحكم في زمام نفسي، وكان واضحًا أنها تسعى للحصول على مزيد من الإيضاح أو التفسير، لتذلني بهذا الوضع إزاءها، ولذا لم أتح لها هذه اللذة. وتصادف أن دخل المحل عميل في هذه اللحظة المناسبة جدًّا، فتركتها كي أهتم بشأنه. ولا بد أن ساعة كاملة كانت قد انقضت عندما برزت فجأة وقد ارتدت ملابس الخروج، واتجهت نحوي قائلة:
- ومع هذا فأنت لم تخبرني بشيء من هذا كله قبل القران. أليس كذلك؟

ولم أرد عليها، فخرجت.
وفي اليوم التالي، هأنا واقف خلف الباب بالحجرة المجاورة، أصغي للفصل في مصيري وقدري. وكان في جيبي مسدس. وكانت هي جالسة إلى المائدة، في أبهى زينتها لذلك اللقاء. ويفيموفتش يتبختر ويتأود أمامها.
وماذا حدث عندئذ؟
لقد حدث كل شيء على النحو الذي كنت قد تخيلته وتوقعته بالضبط (وإني لفخور إذ أقول هذا!) مع أني لم أكن في ذلك الحين متنبهًا إلى خيالاتي وتوقعاتي. ولا أدري هل كلامي في هذا واضح أم لا...
وهذا ما حدث.
لقد ظللت واقفًا أصغي ساعة كاملة لما يدور بينهما. مضت ساعة بأكملها وأنا أشهد مبارزة بين أنبل وأطهر النساء وبين وغد من أوغاد المجتمع، شهواني أبله، له نفس أفعوان. وكنت أتعجب وأتساءل في دهشة أين عسى هذه الساذجة الوديعة المنطوية تعلمت هذا كله؟ إن أبرع المؤلفين ما كان ليتصور في كوميديته القائمة على تصوير الشخصيات مشهدًا كهذا المشهد بملاحظاته الساخرة، وضحكاته الساذجة، وما تبديه الفضيلة من احتقار صادق للرذيلة. وأي تألق في الحديث هذا! وأي سرعة في البديهة! وأي صدق في إدانته والإزراء به. وفي الوقت نفسه أي عالم حافل بالبراءة وعدم التصنع العذري!
كانت تضحك منه ساخرة في وجهه عندما يزعم لها أنه يحبها، وتسخر أيضًا من حركاته وإشاراته وعروضه. وكان قد جاء غير متوقع مقاومة منها لهجماته الفجة، ولذا بدا الآن منكمشًا مثبط العزيمة.
وقد كان خليقًا أن يخطر ببالي في البداية أن ذلك كله ليس إلا مجرد غندرة وتدلل من جانبها "غندرة مخلوقة منحلة ولكنها حاضرة البديهة، كي تضفي على نفسها قيمة أعلى من حقيقتها". ولكن لا! كانت الحقيقة واضحة جلية، ساطعة كالشمس، ولم يعد هناك أي محل للشك. وما كان ليدفعها إلى ترتيب هذا اللقاء شيء سوى بغضها الطائش لي، وهي الغرة التي لا خبرة لها ولا تجربة، ولكن عندما أزفت الآزفة، سقطت الغشاوة فورًا عن عينيها.
لقد كانت - بكل بساطة - تنظر حولها منقبة عن وسيلة تهيننني بها بأي طريقة كانت، ولكن دناءة ما شرعت في صنعه جعلتها تجفل نافرة مستهولة. وهل في وسع بريئة طاهرة لا غبار عليها، تعشق المثل الأعلى، أن تحس بأي جاذبية نحو يفيموفتش أو أي متعفن من حثالة المجتمع؟
كل ما أفلح فيه أنه جعلها تضحك منه. لقد أثار لديها كل عنصر أصيل في روحها، وأيقظت كوامن السخرية والزراية لديها.
وأعود فأكرر أن ذلك المأفون صار قرب نهاية اللقاء مغلوبًا على أمره تمامًا،
(6)
ذكرى فظيعة
والآن حان وقت هذه الذكرى الفظيعة...

عندما استيقظت في الصباح، لا بد أن الساعة كانت قد تجاوزت السابعة. لأن الحجرة كانت مضيئة تقريبًا. وتنبهت تنبهًا كاملًا على الفور. بكل حواسي، وفتحت عيني، فإذا هي واقفة أمام المائدة، وفي يدها المسدس.
ولم تكن تدري أني استيقظت، وأرقبها. وفجأة رأيتها تأتي نحوي والمسدس في يدها، فأسرعت أغمض عيني متظاهرًا بالنوم.
وأقبلت نحو الفراش ووقفت تطل من فوقي مباشرة، وسمعت كل شيء، كان الصمت القاتل مخيمًا على الحجرة، ولكني سمعت صوت الصمت. وحدثت لي رجفة عصبية واحدة. وإذا بي، أفتح عيني رغم إرادتي. وكانت واقفة تحدق في عيني مباشرة في تلك اللحظة، وكان المسدس في يدها لِصق صدغي فعلًا. وتلاقت نظراتنا، لكن النظرة التي تبادلناها لم تدم أكثر من ثانية واحدة، بل أقل من ثانية.
وأكرهت نفسي على إغماض عيني مرة أخرى. وقد قررت بكل ما في إرادتي من قوَى ألا أتحرك بعد هذا أو أفتح عيني، أيًّا كان ما ينتظرني.
ويحدث أحيانًا أن يفتح المرء عينيه فجأة، وهو مستغرق في النوم، بل ويرفع رأسه لحظة واحدة وينظر في أرجاء الحجرة، ثم يضعه على الوسادة من غير أن يستيقظ، ويواصل النوم من غير أن يتذكر من هذا كله شيئًا.
ولمَّا كنت قد أغلقت عيني فجأة مرة أخرى، وظللت لا أتحرك شأن المستغرق في النوم، بعد أن واجهت نظرتها ورأيت المسدس عند صدغي، فقد كان في وسعها أن تحسبني نائمًا بالفعل ولم أرَ شيئًا مما يحدث. ثم إنه كان أكثر مما يمكن أن يقبل التصديق أن أغلق عيني مرة أخرى في لحظة مثل هذه، بعد أن رأيت ما رأيت.
أجل كان شيئًا لا يمكن تصديقه. ومع هذا كان من الجائز أيضًا أنها خمنت الحقيقة. وومض هذا في ذهني في نفس اللحظة. ويا لتلك الدوامة من الأفكار والمشاعر التي ومضت في ذهني في أقل من لمح البصر، بفضل ما في الفكر البشري من كهرباء!
وشعرت أنها إن كانت قد ضمنت الحقيقة وعرفت أنني لست نائمًا، فسوف يسحقها سحقًا أن أكون مستعدًّا لملاقاة الموت، وعندئذ قد تهتز يدها، وينهار تصميمها السابق بسبب هذا الاكتشاف الجديد.
يقولون إن المرء إذا ما نظر من ارتفاع شاهق، انجذب بلا هوادة أو مقاومة إلى الهوة الفاغرة تحت قدميه. وأعتقد أن حوادث انتحار وقتل كثيرة ما كانت لتتم فعلًا لولا أن مسدسًا قد صار في قبضة اليد. فهذه أيضًا هاوية أخرى، يبلغ انحدارها ٤٥ درجة، ولا حيلة للمرء أمامها إلا أن ينزلق إليها، وكأن قوة قاهرة تجبر المرء على الضغط على الزناد.
ومع هذا فقد ينقذها من الانزلاق في الهوة فطنتها إلى أنني رأيت كل شيء، وعرفت كل شيء، وأنتظر الموت على يدها في صمت.

واستمر الصمت. وفجأة شعرت بلمسة الفولاذ البارد على صدغي، لصق شعري. وقد يخطر لكم أنني كنت أمل النجاة، وسوف أجيبكم على هذا التساؤل كأنني في حضرة الرب، لم أكن أشعر بذرة أمل في هذا، ولعل تقديري لفرصة نجاتي لا يتجاوز الواحد في المئة.
لماذا كنت متقبلًا هذا الموت إذن؟
لقد حان هنا دوري كي أسألكم: وما جدوى الحياة لي عندما أرى المسدس مصوبًا نحوي ممن أعبدها؟ ثم إني كنت أعرف - بكل كياني من قوة - أن هذه اللحظة تعني معركة في سبيل التفوق أو السيطرة فيما بيننا... فهي مبارزة مروعة يترتب عليها الموت أو الحياة. مبارزة يخوضها عين ذلك الجبان الذي كان بالأمس قد صدر قرار بطرده من زملائه بسبب جبنه. كنت أعرف هذا، وكانت تعرفه هي أيضًا. أعني إن كانت فطنت إلى أنني لست نائمًا.
وقد لا يكون هناك شيء من هذا كله، أو لعله لم تكن لديَّ هذه الأفكار في ذلك الحين، ومع هذا فلا بد أن الأمور كانت هكذا، ولو لا شعوريًّا، لأني لم أصنع شيئًا سوى التفكير في هذا كله في كل ساعة من ساعات عمري التالية.
وقد تسألونني أيضًا: لماذا لم أنقذها من ارتكاب جريمة؟
ولقد سألت نفسي عين هذا السؤال ألوف المرات بعد ذلك، كلما تذكرت واستعدت هذه اللحظة وسرت في عمودي الفقري قشعريرة من جراء ذلك. ولكني في تلك اللحظة كنت فريسة يأس قاتل. كنت أتلاشى شخصيًّا، فكيف كان يتسنى لي أن أنقذ أي إنسان؟ وكيف لكم أن تعلموا أني كنت أريد في تلك اللحظة أن أنقذ أحدًا أم لا؟ من الذي يدري ماذا كان عسى أن يكون شعوري وقتئذ؟
كانت حواسي مستثارة، ومع هذا مرت الثواني، والصمت القاتل مخيم، وهي لم تزل واقفة تطل من فوقي مباشرة. وفجأة ارتجفت بالأمل، وبسرعة فتحت عيني، ولم يكن لها في الحجرة أثر، فنهضت من فراشي، وقد كسبت المعركة، وحقت عليها الهزيمة إلى آخر الدهر!
وبرزت إلى الحجرة الأمامية للإفطار، كعادتنا اليومية. وكانت تتولى صب الشاي دائمًا بنفسها. وجلست صامتًا، وتناولت الكوب الذي قدمته لي. ونظرت إليها بعد خمس دقائق أو نحوها، فإذا هي شاحبة شحوبًا رهيبًا، بل كانت أشد شحوبًا من الليلة الماضية، ووجدتها تنظر إليَّ. ولمَّا رأت أني أنظر إليها، ارتجفت شفتاها الشاحبتان فجأة في ابتسامة شاحبة، ووجهت عيناها سؤالًا على استحياء، فقلت في نفسي:
- هي إذن لم تزل في شك، ولم تزل تتساءل: أتراه يعرف؟ أتراه رأى؟
وأشحت عنها بغير اكتراث.
وبعد الإفطار أغلقت المحل بالفعل وذهبت إلى السوق حيث ابتعت سريرًا من الحديد وستارًا. وعند عودتي وضعت السرير في الحجرة الأمامية وأحطته بالستار. وخصصته لها، ولكني لم أقل لها شيئًا. فالألفاظ كانت شيئًا هزيلًا

سطحيًّا في هذا المقام، لأن السرير قال لها بجلاء: "إنني رأيت كل شيء وعرفت كل شيء". ولم يعد هناك أدنى شك.
ولما أويت لفراشي، تركت المسدس على المائدة كالعادة. وفي تلك الليلة رقدت في صمت على فراشها الجديد. لقد انحلت عقدة زواجنا. وهي الآن "مقهورة ولكنها لم تظفر بالصفح".
وأصابتها الحمى في الليل لدرجة الهذيان، وظلت مريضة بها ستة أسابيع...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# القسم الثاني

# (1)
# حلم الكبرياء

لقد أخبرتني ليوكيريا الآن أنها سوف لا تمكث معي، بل ستغادرني بمجرد الفراغ من دفن السيدة. وكنت حينئذ راكعًا منذ خمس دقائق لأصلي. ومع أني كنت أريد أن أظل في صلاتي ساعة كاملة، فإن الأفكار تدق جوانب رأسي. وكلها أفكار مريضة... وعقلي نفسه مريض، فما جدوى الصورة في هذه الحالة؟ إنها - على العكس - محض إثم. وهذا كل شيء.

ومن العجيب أيضًا أنني لا أشعر بميل للنعاس. فعندما تحيق بالمرء كارثة أو مصيبة كبرى، يشعر بالرغبة في النوم بعد أن تنقضي نوبة الحزن الأولى. وهي أشد النوبات عنفًا وضرواة. والمحكوم عليهم بالإعدام يقال إنهم ينامون أعمق نوم ممكن في ليلتهم الأخيرة. وهذا في حد ذاته حسن وصواب، لأن الطبيعة تأمر به وتحتمه، وإلا لاستحال على الناس تحمل الموقف. لذا رقدت على الأريكة ولكنني لم أنم...

... وخلال أسابيع مرضها الستة ظللنا نمرضها ليلًا ونهارًا، أنا وليوكيريا، ومعنا ممرضة من ممرضات المستشفيات استأجرتها لهذا الغرض. ولم أدخر جهدًا ولا مالًا، بل إنني استمتعت بإنفاق مالي عليها. واستدعيت الدكتور "شكرويدر" لعيادتها ونقدته عشرة روبلات عن كل زيادة. ولما استردت وعيها حاولت أن أظل بعيدًا عن أنظارها.

ومع هذا، لماذا أصف كل ذلك. عندما نهضت من فراشها وبدأت تغدو وتروح، جاءت إلى حجرتي، وفي صمت وسكون جلست إلى مائدة بمفردها، بمعزل عني، وكنت قد اشتريتها لها أيضًا في ذلك الحين. أجل، لم يقل أحد منا أي شيء للآخر. أعني أننا شرعنا فيما بعد نتكلم، ولكنه كان كلامًا تافهًا.

وكان تجهمي مقصودًا بالطبع، ولكني تبينت بوضوح شديد أنها كانت مسرورة لأنه لم يكن عليها أن تقول الشيء الكثير... أن تقول أكثر مما يجب. واعتقدت أن هذا طبيعي جدًّا من جانبها، وقلت في نفسي:

- إنها مهزومة ومقهورة تمامًا. فمن الطبيعي جدًّا أن نتيح لها فرصة تنسى فيها، وتسترد توازنها.

وهكذا عشنا في صمت، ولكني قضيت كل دقيقة عشتها في إعداد نفسي للمستقبل. وحسبت أنها كانت تصنع ما أصنع. واستمتعت إلى أقصى حد وأنا أحاول أن أخمن ما كانت تفكر فيه بالضبط.

وثمة شيء آخر، لا أحد يعرف بالطبع ذلك الكرب الذي كنت فريسته، وأنا أتحسر عليها وهي صريعة المرض. ولكني كنت أتحسر عليها في صمت، وأخنق الأنين والتأوهات في صدري، حتى لا تسمعها ليوكيريا نفسها.

لم أطق التفكير، بل مجرد تخيل أنها يمكن أن تموت من غير أن تعرف كل شيء، ومع هذا. فعندما زال عن حياتها الخطر. وبدأت تتعافى، عدت بسرعة، وبلهفة، إلى هدوء بالي. هذا شيء أذكره تمامًا.
وأكثر من هذا، قررت "تأجيل مستقبلنا" أطول مدة ممكنة، وأن أستمر في الوقت نفسه على نفس الوتيرة معها...
أجل.. حدث لي شيء غريب جدًّا في ذلك الحين. ولست أدري بأي صفة أخرى يمكن أن أنعت هذا الذي حدث لي، فقد انتصرت عليها، وكان مجرد تنبهي ووعيي لهذا الانتصار كافيًا - فيما يبدو - كي يرضيني تمامًا. وهكذا قضينا الشتاء برمته.
نعم، كنت راضيًا جدًّا، وأشد رضًا من أي وقت في حياتي، واستمر هذا الشعور مستوليًا عليَّ طيلة فصل الشتاء.
وهأنتم ترون أنه كان هناك ظرف واحد فظيع في حياتي حتى ذلك الحين، أعني حتى يوم كارثتي مع زوجتي، وقد ظل هذا الظرف يبهظني في كل يوم. وفي كل ساعة، ألا وهو فقداني سمعتي الطيبة وما أصابني من العار من جانب أورطتي.
وأوجز الأمر كله فأقول إنني كنت ضحية ظلم استبدادي. أجل إن زملائي كانوا يكرهونني لأنني كنت صعب المعاشرة، أو ربما لأنني بدوت له غريب الأطوار. ولكنكم تعرفون طبعًا على أي نحو تمضي هذه الأمور. فقد يكون هناك شيء أثير لديك، عزيز عليك، بحيث تجله إجلالًا عظيمًا، وإذا به يثير الضحك لدى حفنة من زملائك.
كلا. لم يكن منهم أحد يحبني، حتى عندما كنا في المدرسة. فقد كنت مكروهًا دائمًا في كل مكان حتى ليوكيريا لا تحبني. ومع أن الكراهية كانت أساس كل ما حدث في الأورطة، فإن النتيجة جاءت بلا شك بطريق الصدفة.
وأقول هذا الكلام لأنه ما من شيء يمكن أن يكون أشد نكيرًا وأعصى على الاحتمال وأعين للجلد والصبر من نزول الدمار بساحة المرء بمحض الصدفة، لمجرد أن مجموعة من الظروف العاثرة اصطلحت عليه. وكان من الممكن جدًّا أن تتبدد أيدي سبأ كأنما هي غيوم تناهبتها الرياح. وما أشد ما ينطوي على المهانة لكائن يتصف بالذكاء. وإليكم ما حدث:
كنت في المسرح ذات ليلة، وذهبت في فترة الراحة بين الفصول إلى المقصف. ودخل ضابط في فرقة الهوسار، اسمه "أ"، وشرع يتحدث إلى صديقين له من الهوسار أيضًا. وبصوت مرتفع جدًّا بحيث يسمعه كل الضباط والمدنيون الحاضرون هناك قائلًا إن النقيب بيزومتسيف، من أورطتنا، يحدث شغبًا في الدهليز، وأنه "سكران فيما يبدو". ولم يتجاوب معه الآخرون في هذا الحديث، ثم إن ذلك لم يكن صحيحًا على كل حال، لأن بيزمتسيف لم يكن سكران، والشغب المزعوم لم يكن شغبًا على الإطلاق. وشرع الهوسار يتحدثون في أمور أخرى، وهكذا انتهى الموضوع عند هذا الحد.

ولكن في صباح اليوم التالي كان الخبر قد تسرب إلى أورطتنا، وشرع الجميع على الفور يقولون إنه كان من الواجب عليَّ - لأنني الوحيد الحاضر من بين ضباط أورطتنا عندما تحدث "أ" بهذه الوقاحة عن بيزومتسيف - أن أتصدى للموقف، وأذهب إليه وأخرسه بالزجر والتقريع العلني!
ولكن لماذا يجب عليَّ هذا؟ إن كانت بينه وبين بيزومتسيف ضغينة، فهذه مسألة خاصة بهما، وما المبرر لتدخلي فيها؟
أما الضباط فكان لهم رأي آخر. كانوا يرون المسألة غير خاصة بهما، وما المبرر لتدخلي فيها؟
أما الضباط فكان لهم رأي آخر. كانوا يرون المسألة غير خاصة بهم، ولا شخصية، بل مسألة الأورطة بأسرها. وبما أنني كنت ممثلها الوحيد في محل الواقعة، فمن الجائز أن الضباط والمدنيين الحاضرين يرون في مسلكي دليلًا على أن أورطتنا تضم ضباطًا غير مدققين في صيانة شرف أورطتهم وكرامتها.
ولم أستطع موافقتهم على هذا المنطق، ولكن قيل لي إنه لم يزل في وسعي أن أصحح الأوضاع، وإن كان الوقت متأخرًا، وذلك بأن أتحدى "أ" للمبارزة رسميًّا. ورفضت هذا الرأي. لمَّا كنت ساخطًا وضيق الصدر، فقد صدر رفضي في صورة متغطرسة.
وعلى أثر ذلك أرسلت أوراق استعفائي فورًا. وهذا كل ما في الموضوع، وهكذا احتفظت بكرامتي وكبريائي، ولكني كنت منسحق الروح. وفقدت إرادتي وقدرتي على التفكير...
واتفق في ذلك الحين أن فرغ زوج أختي في موسكو من تبديد رأس المال الصغير الذي كنا نملكه، بما في ذلك نصيبي من الميراث عن والدين. وهو نصيب صغير حقًّا، ولكن ضياعه تركني خالي الوفاض بادي الأنقاض تمامًا، لا مورد ولا مأوى.
وكان في وسعي أن أحصل على منصب ولكني لم أسعَ إلى هذا، لأني لم أستطع أن أرى نفسي مرتديًا سترة موظفي السكة الحديدية بعد أبهة بزتي العسكرية. وهكذا قلت لنفسي ما دام العار سيخلص، فليلحقني بأسوإ أشكاله. وإن كان لا بد من المهانة، فلتكن أحقر صور المهانة. وإن كان لا بد من الخزي، فليكن أفحش الخزي. وهكذا اخترت طريقي.
وكانت سنواتي الثلاث التالية سوداء كالحة، حتى لقد نزلت فترة من الوقت بملجأ فيازمسكي للمعوذين. ومنذ سنة ونصف ماتت في موسكو والدتي بالعماد، وهي سيدة عجوز ثرية. وعلى غير توقع مني تذكرتني في وصيتها من بين من تذكرتهم، ومنحتني ثلاثة آلاف روبل.
وفكرت في الأمر مليًّا، وقررت مصيري في تلك اللحظة. ووقع اختياري على فتح محل للرهنيات، لأنني في هذه المهنة لن أكون مطالبًا بتقديم حساب أو اعتذار أو تبرير لما مرَّ بي في حياتي الماضية.

ومحل الرهنيات معناه النقود، والبيت، وحياة جديدة بعيدًا عن ذكرياتي القديمة. وكانت هذه خطتي.
ومع هذا كان ماضي الكئيب، وفقداني شرفي وسمعتي الطبية فقدانًا لا يمكن تعويضه أو استرداده يعذبني في كل ساعة، بل كل دقيقة عذابًا ممضًّا. ثم تزوجت. فهل كان هذا بالصدفة؟ لست أدري، ومهما يكن من شيء، فإنني عندما أتيت بها إلى البيت أنني أتيت إليَّ بصديق، لأنني كنت بحاجة ماسة جدًّا إلى صديق.
ثم رأيت بوضوح أن هذا الصديق لا بد من إعداده أولًا، وتشكيله، بل وقهره أيضًا. وهل كان في وسعي أن أشرح أي شيء أو أفسره لتلك الطفلة بنت الستة عشرة سنة، المتحيرة العقل. بدون تمهيد؟
فلولا تلك الكارثة الرهيبة المتعلقة بحادثة المسدس التي ذكرتها، مثلًا، وما قدمته هذه الحادثة من عون، أكان في وسعي أن أبرهن لها على أنني لست جبانًا، وأن أورطتي اتهمتني بالجبن ظلمًا؟ لقد جاءت هذه الكارثة في أوانها المناسب جدًّا.
لقد كانت سيطرتي على نفسي وأنا تحت رحمة فوهة المسدس هي انتقامي لكل ماضي الكئيب. ومع أنه ما من أحد سواها سيعرف إطلاقًا هذه المسألة، فإنها، هي بالذات، تعرفها. وكان هذا حسبي، لأنه يعني كل شيء لديَّ، ذلك أنها شخصيًّا كانت تعني كل شيء لديَّ. كانت تعني كل الأمل الذي يمثله لي المستقبل في أحلامي الغالية!
إنها الشخص الأوحد الذي كنت أعده لنفسي. ولم يكن هناك أحد سواها إطلاقًا أريده لنفسي. وهي الآن عرفت كل شيء. عرفت على الأقل أنها كانت متسرعة بغير وجه حق في الانضمام إلى صفوف أعدائي وأبهجتني هذه الفكرة. لأنها لن تستطيع بعد هذا أن تظنني وغدًا. ربما ظنتني غريب الأطوار، بيد أن هذه الفكرة لم تسخطني حقيقة بعد ما حدث... فغرابة الأطوار ليست رذيلة، بل لعلها على العكس من هذا، لأنها في بعض الأحيان تروق النساء وتستهويهن.
وقصارى القول أنني أجلت الحل النهائي عن عمد، فما حدث كان أكثر من كافٍ في حد ذاته لراحة بالي في ذلك الحين، وزودني بثراء في الرؤية ومزيد من المواد التي أدخلها في نسيج أحلامي.
إن آفتي هي هذه! إنني رجل حالم. وقد حصلت بتلك الحادثة على مادة كافية لأحلامي، ولذا حسبت أنها شخصيًّا يمكن أن "تنتظر".
وهكذا انقضى الشتاء في توقع شيء ما. وأمتعني أن أسترق النظرات إليها وهي جالسة إلى مائدتها. وكانت تقوم بأشغال الإبرة وقت النهار، وفي المساء كانت تطالع أحيانًا، في كتب تأخذها من مكتبتي.
وكانت كتبي المختارة المنتقاة بعناية ينبغي أن تحسن الشهادة في حقي أيضًا... وقلما كانت تخرج من البيت، وكان من عادتي أن آخذها لنزهة على

الأقدام كل يوم بعد الغداء قبل حلول الظلام. ولم يكن الصمت يخيم على مسيرتنا كذي قبل... بل كنت أحاول أن أجعل الأمور تبدو كما لو كنا نتحدث حديثًا شائقًا رائقًا ولسنا معتصمين بالصمت. ولكن كلًّا منا - كما قلت آنفًا - لم يكن راغبًا في الإفاضة أو التدفق في الكلام. وكان ذلك متعمدًا من جانبي. أما من جهتها فقد ظننت أنها بحاجة إلى "فسحة من الوقت".
ومن الغريب طبعًا أنه لم يخطر لي قط حتى نهاية الشتاء أنني لم أضبطها قط، طيلة ذلك الوقت. تنظر إليَّ ولو مرة واحدة وأنا أختلس إليها النظر. وحملت ذلك على محمل الحياء أو التهيب، ثم إنها كانت تبدو خجول هيابة شديدة الوداعة، شديدة الضعف بعد إبلالها من مرضها الطويل.
كلا! لقد حسبت أنه يحسن بي أن أتريث جدًّا، وأنها، فجأة، "ستأتي إليَّ من تلقاء نفسها ذات يوم".
وكان لهذه الفكرة سحرها الذي لا يقاوم في نظري. وأضيف إلى هذا أنني في بعض الأحيان كنت أصل إلى حد الغليان ويخيل إليَّ بمحض التصور أنها أخطأت في حقي. وتستمر هذه الحالة بعض الوقت في كل مرة. ولكن ما من مرة استطاعت الكراهية أن تنضج وتضرب بجذورها في قلبي. ولم أعتقد أبدًا في أي وقت أنها مجرمة، حتى عندما فصمت عروة زواجنا بشرائي السرير والستار خصيصى لها. ولم يكن ذلك لأنني ظننت بها الإجرام ولو بالجرأة، بل لأني كنت أعتزم أن أعفو عنها تمامًا منذ أول يوم، حتى قبل شراء ذلك السرير.
وقصارى القول إن الكراهية لم تكن من شيمتي، لأني قاضٍ صارم فيما يتصل بالإخلاص. فقد بدت لي مقهورة تمامًا وذليلة ومسحوقة بحيث أشفقت عليها بشدة في بعض الأحيان، وإن كنت قد أحببت فكرة هوانها وأحببت فكرة عدم تساوينا على هذا النحو.
واتفق أنني أتيت عدة أمور صالحة ذات شتاء. إذ انتهزت فرصة سانحة لإلغاء دينين، وأعطيت امرأة مسكينة قرضًا من غير أن آخذ شيئًا بصفة رهن. ولم أخبر زوجتي بشيء من هذا، ولم تكن في مؤخرة رأسي فكرة توصلها إلى اكتشاف هذه الأيادي عندما أسديتها، بيد أن المرأة المسكينة جاءت لتقدم شكرها إليَّ، وكادت تركع أمامي. وهكذا اكتشفت زوجتي الحقيقية، وخيل إليَّ أنها سرت حقًّا لمعرفة ذلك.
وكان الربيع يقترب. لأننا كنا في منتصف شهر إبريل، ورفعنا عن النوافذ المصاريع الشتوية، وأضاءت الشمس حجرتينا بدفقات وضيئة من الشعاع. ولكن الغشاوة كانت مسدلة على عيني. فأغمضت بصيرتي. ويا لها من غشاوة رهيبة قاتلة!
ولست أدري كيف حدث هذا. ولكن الغشاوة سقطت فجأة، وإذا بي دفعة واحدة أرى وأفهم كل شيء. أكان ذلك مصادفة، أم أن شعاعًا ثاقبًا من أشعة الشمس نبه عقلي وحركه فجأة للتفكير والفهم؟

كلا! لم يكن ذلك تفكيرًا ولا فهمًا. بل كان عصبًا ظل مينًا تقريبًا حتى تنبه فجأة وبدأ يرف رفيف الحياة، مضيئًا بذلك جوانب نفسي المعتمة وكبريائي الشيطان كان ذلك أشبه بالصدمة أو الرجة التي حدثت فجأة وعلى غير توقع. حدثت قبل الغروب.. في حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (2)
# وسقطت الغشاوة فجأة

كلمة أو كلمتان لا بد منهما قبل أو أواصل حديثي.
لقد لاحظت عليها بعض الشرود الممعن في التفكير ذات يوم منذ شهر. لم يكن صمتًا عاديًّا، بل كان تفكرًا. وهذا أيضًا لاحظته فجأة. وكانت جالسة وقد انحنى رأسها انحناء شديدًا فوق ما تحيكه، ولم تكن تدري أني أرقبها. وعندئذ، دهمني فجأة الشعور بأنها نحلت وهزلت جدًّا، وصار وجهها شاحبًا جدًّا، وشفتاها خاليتين من الدم. كل هذا، مضافًا إلى الشرود المتفكر أصابني بصدمة مروعة.
وكنت قد سمعت سعلتها الصغيرة الجافة من قبل، ولا سيما في الليل، ونهضت على الفور، من غير أن أقول لها شيئًا ذهبت لأنادي الدكتور شكرويدر.
وجاء الطبيب في اليوم التالي، فدهشت لحضوره دهشة بالغة وظلت تنقل بصرها بيني وبين الدكتور شكرويدر جيئة وذهابًا. وقالت بابتسامة صغيرة غامضة:
ولكنني على خير ما يرام.
ولم يفحصها الدكتور شكرويدر فحصًا دقيقًا (وهؤلاء الأطباء يتصفون أحيانًا بإهمال شديد مبعثه الغرور) وكل ما قاله في الحجرة الأخرى إن ما بها لا يعدو أن يكون من آثار مرضها، وإذا جاء الربيع فمن المستحسن الذهاب إلى شاطئ البحر في الجنوب. وإذا لم يتيسر هذا، فالانتقال إلى الريف يكفي الغرض... ومجمل القول أنه لم يقل لي شيئًا سوى أنها مصابة بضعف أو شيء من هذا القبيل.
ولما غادرنا الطبيب رمتني بنظرة جادة بصورة رهيبة، وقالت:
- أنا على خير ما يرام.
قالت هذا واحمر وجهها احمرارًا شديدًا. ولعله الخجل. بل لا بد أنه كان الخجل. أوه! إني أفهم ذلك كله الآن، لقد أخجلها أنني - أنا الذي لم أزل زوجها في الظاهر - قد انزعجت لأجلها كأنني زوجها. ولكن فاتني أن أدرك هذا في حينه، وعزوت احمرار وجهها إلى الشعور بالذلة والهوان (الغشاوة!).
ثم بعد شهر من ذلك التاريخ، أي في إبريل، في حوالي الساعة الخامسة من بعد ظهر نهار مشرق مشمس. كنت جالسًا إلى مكتبي أقوم بحساباتي. وكانت تحيك ثيابًا على مائدتها الخاصة في حجرتنا. وفجأة سمعتها... سمعتها تغني، بصوت خفيض، خفيض جدًّا..

ونزلت هذه الظاهرة عليَّ نزولًا مذهلًا، لا أستطيع تفسيره إلى يومنا هذا. وكنت حتى ذلك اليوم لم أكد أسمعها تغني، اللهم إلا في مستهل أيام زواجنا، عندما أحضرتها إلى بيتي، وكنا نمزح ونسلي أنفسنا بالتدرب على إطلاق رصاص مسدسي على هدف ما.
وكان لها في ذلك الحين صوت قوي رنان، كان صوتًا - والحق يقال - شديد الجمال والسلاسة. أما الآن فغناؤها مؤثر جدًّا. كلا. لم تكن الأغنية حزينة، (فهي أغنية رومانسية) بل صوتها هو المتكسر العليل، كأنه لا يستطيع النهوض بالأغنية، فبدت الأغنية نفسها كالمريضة.
كانت تغني بصوت خافت، حتى إذا رفعته إلى طبقة عالية تكسر وانهار، فكان لتكسره وانهياره وقع أليم جدًّا على نفسي وهي تجلو حنجرتها وتحاول من جديد، بصوت خافت، خافت جدًّا.
قد يضحك الناس من اضطرابي، ولكن ما من أحد يمكن أن يفهم لماذا كنت مضطربًا هكذا... كلا. لم أكن شعرت حتى ذلك الحين بالشفقة عليها، بل كان الأمر على خلاف ذلك تمامًا. ففي البداية، في البداية الأولى على الأقل انتابتني الدهشة الفظيعة والحيرة، واستولى عليَّ شعور سقيم، يكاد يكون حاقدًا.
ماذا؟ أتغني؟ وفي وجودي! أيمكن أن تكون نسيت وجودي؟
وظللت حيث أنا، مأخوذًا للغاية، ثم نهضت، وتناولت قبعتي، وغادرت البيت، من غير أن أعرف غايتي. أي من غير أن أعرف أين أنا ذاهب، ولماذا. وفي البهو ساعدتني ليوكيرا على ارتداء معطفي.
ووجدت نفسي أسأل ليوكيريا:
- أهي تغني؟
ولم تفقه قولي، وحملقت فيَّ من غير فهم. ولكني عمومًا كنت امرءًا عسير الفهم في ذلك الحين، فعدت أسألها:
- أهذه أول مرة تغني فيها؟
فقالت لوكيريا:
كلا. إنها تغني أحيانًا عندما تكون أنت في الخارج.
وأتذكر الآن كل شيء. لقد هبطت الدرج وغادرت البيت وشرعت أمشي في الشارع على غير هدى. ووصلت إلى "الناصية" ووقفت هناك أحدق في الفضاء. وكان الناس يمرون بي ويدفعونني من هذا الجانب وذاك الجانب، ولكني لم أكن أشعر بشيء من هذا، أو ألقي إليه بالي.
وناديت عربة وطلبت من الرجل أن يأخذني إلى جسر الشرطة، من غير أن أدري لماذا. وفجأة غيرت رأيي وأعطيته عشرين كوبكًا على سبيل الهبة، قائلًا وأنا أبتسم بغباء، وقد طفت نشوة غريبة إلى قلبي:
- خذ هذه لك...

وتحولت ناحية البيت، مستحثّا الخطا. لأن تلك النبرة المسكينة المتكسرة في صوتها رنت في حنايا فكري، فلهثت لها أنفاسي. ها هي الغشاوة تسقط. وتسقط. وتسقط. إن انفجارها بالغناء في حضوري معناه أنها نسيت كل ما يتعلق بي، وكان هذا واضحًا ومروعًا. كان قلبي يعرف هذا، ولكن فكري كان ملآن بالنشوة والجذل، وكان هذا أقوى من الخوف.
أوه! يا لسخرية القدر!
لا بد أنني ظللت أحمل هذا الجذل في روحي طول الشتاء. ولكن أين عساي كنت طول الشتاء؟ بما يدور في حنايا روحي؟
وصعدت الدرج جريًا لشدة نفاد صبري. ولكني لا أستطيع أن أقول أدخلت البيت عل استحياء، وتهيب أم لا. وكل ما أذكره أن الأرض بدت لي وكأنها تميد وتترنح. كأنني طافٍ في نهر.
ودخلت الحجرة. وكانت جالسة تحيك ثيابًا، ورأسها لم يزل منحنيًا كذي قبل، ولكنها كانت قد كفت عن الغناء. ورمتني بنظرة عابرة لا فضول فيها ولا استطلاع، بل لم تكن تخطره، وإنما هي مجرد فعل منعكس، طبيعي ولا معنى له، يحدث عندما يدخل الحجرة أي أحد.
وذهبت إليها مباشرة، وجلست ملاصقًا لها، وأنا كالمجنون. ونظرت إليَّ بسرعة، وفي عينيها شيء كالفزع. وتناولت يدها. ولا أذكر ماذا قلت لها أو على الأصح ماذا كنت أقصد أن أقول لها، لأني لم أستطع الكلام كما يجب في ذلك الحين، ولم أستطع أن أسيطر على صوتي المتكسر. ثم إني لم أكن أدري ماذا أريد أن أقول. كل ما هناك أني كنت ألهث.
- هيا بنا نتكلم... أتعرفين؟ قولي شيئًا.
أجل كنت أقول شيئًا تافهًا سخيفًا من هذا القبيل. ولكن أتراني كنت أستطيع أن أكون معقولًا ومتزنًا في ذلك الحين؟
وارتجفت، وانكمشت منطوية على نفسها بعيدًا عني، مرتاعة، وهي تحدق في وجهي. وفجأة تغير تعبير عينيها وتحول إلى دهشة صارمة متجهمة. أجل كانت دهشة، وكانت صارمة. وراحت تنظر إليَّ بعينيها على أقصى سعتهما. وتلقيت من سيماها الصارمة، ودهشتها الصارمة لطمة ساحقة.
وكأنما كانت دهشتها الصارمة تسألني، بدون ألفاظ:
- أنت إذن تريد الحب أيضًا؟
وقرأت ذلك بوضوح على محياها. قرأته كله. واهتز كياني كله. ووقعت على قدميها. أجل وقعت على قدميها، فوثبت قائمة بسرعة، وتشبثت بيديها بكل قوتي، وثبتها في مكانها.
كنت مدركًا ليأسي واعيًا به كل الوعي! ولكن أتصدقونني إذا قلت إن انبثاق الجذل والنشوة في فؤادي كان دافقًا جدًّا، بحيث خيل إليَّ أنني قد أموت من فرط شدته، ورحت أقبل قدميها نشوة وسعادة. أجل في سعادة لا تعرف لها حدًّا أو مقدارًا. هذا كله برغم وعيي بقلة أملي في انقشاع يأسي.

بكيت وحاولت أن أقول شيئًا، ولكن الألفاظ خانتني. فجأة خلت دهشتها وفزعها المكان لأمارات القلق. وارتسم على محياها سؤال ملح. وراحت الآن تنظر إليَّ بغرابة، بل وبضراوة، لشدة نفاد صبرها ورغبتها في الفهم. وكانت تبتسم.
كانت في أقصى غايات الخجل لأنني كنت أقبل قدميها، وجذبتهما بعيدًا، فأسرعت أقبل الأرض التي كانت تقف عليها بقدميها من قبل. ورأت هذا، فشرعت تضحك لفرط خجلها. (وأنتم تعرفون كيف يضحك المرء عندما يشعر بالخجل).
وبدأت تنتابها الهستيريا. هكذا تبينت. لأن يديها كانتا ترتجفان، إلا أني لم أُعر هذا التفاتًا، ومضيت أهمس لها أني أحبها، وأني لن أنهض من ركوعي هذا على ركبتي:
- دعيني أقبل هدب ثوبك. دعيني أتعبد إليك هكذا طول حياتي...
لست أدري، ولست أذكر بالضبط ماذا قلت. وفجأة انفجرت منتحبة، وبدأت ترتجف، وقد استولت عليها نوبة هستيرية فظيعة. لقد روعتها!
وحملتها إلى فراشها. ولما مرت النوبة، جلست كالمأخوذة، وتشبثت بيدي وتوسلت إليَّ أن أهدأ قائلة:
- اهدأ. ولا تعذب نفسك هكذا. اهدأ!
وشرعت تبكي من جديد.
ولم أترك جوارها طيلة ذلك المساء. ورحت أقول لها إني سآخذها إلى بولونيا، وإلى شاطئ البحر. سآخذها إلى هنا الآن، فورًا. بعد أسبوعين. وقلت لها إن صوتها ضعيف متكسر. وأني سمعته ذاك اليوم. وأني سأغلق محل رهنياتي نهائيًّا، وأبيعه إلى "دوبروزاروف". وأن كل شيء سيبدأ من جديد. ولكن الشيء الأساسي حقًّا هو بولونيا.
وأصغت لي، وهي لم تزل مرتاعة، وتفاقم ارتياعها. ولكن ما أهمني أكثر من سواه لم يكن هذا الذي انتهابها، بل رغبتي الجارفة في أن أقع على قدميها مرة أخرى، أواصل تقبيل الأرض التي وطأتها قدماها، وأتعبد إليها. وظللت أكرر عليها القول وأعيده مرارًا:
- لن أطلب منك شيئًا بعد الآن. لن أطلب منك شيئًا! لا تردي عليَّ. تجاهليني تمامًا. دعيني فقط أنظر إليك من بعيد. اجعليني شيئًا من ملك يمينك. كأنني كلبك...
وبكت، وهي تقول لي:
- وأنا التي حسبتك ستتركني إلى الأبد هكذا!
وقد خرجت الكلمات، بل أفلتت منها بغير إرادتها، حتى أنها قد لا تكون واعية إطلاقًا لتفوهها بها. ومع هذا كانت هذه الكلمات أهم وأهول ما سمعت، ووضح لي معناها وضوحًا تجاوز كل ما عداه في ذلك المساء. وكأنه سكين طعنت فؤادي في الصميم.

لقد فسرت لي هذه الكلمات كل شيء. نعم كل شيء. ولكن عندما كانت هي هناك إلى جواري، بحيث أستطيع رؤيتها، جرفني الأمل، وغمرتني سعادة رهيبة.
لشد ما أتعبتها وأرهقتها ذلك المساء. كنت أعرف هذا. ولكن الفكرة التي استولت عليَّ طيلة الوقت أنني لا بد أن أجعل كل شيء مختلفًا تماما عما كان، وفي الحال.
وأخيرًا، قرب حلول الليل عبرت منهكة تمامًا، فرجوتها أن تحاول النوم. وفعلًا استغرقت في نوم عميق على الفور. وخشيت أن تكون محمومة. وكانت فعلًا محمومة، ولكن بدرجة خفيضة جدًّا.
وظللت أعود لأطمئن عليها كل دقيقة تقريبًا، ماشيًا إليها في خفة الطير على أطراف أصابعي كي أنظر إليها، وأنا أعصر يدي في قلق وكرب، رانيًا من أعلى إلى تلك المخلوقة المريضة المسكينة، تحت غطائها الزري، في ذلك السرير الحديدي الذي اشتريته لها بثلاثة روبلات.
وركعت بجوارها، ولكني لم أجسر على تقبيل قدميها وهي نائمة (لن أقبلها بغير إرادتها!) وركعت أمام الأيقونات كي أصلي، ولكنني لم ألبث أن وثبت واقفًا.
وكانت ليوكيريا تراقبني، ولا تفتأ تأتي من المطبخ بين حين وآخر، فذهبت إليها وأمرتها أن تأوي إلى فراشها، وأن كل شيء ابتداء من الغد سيكون مختلفًا تمامًا عما هو.
وكنت مؤمنًا بذلك، إيمانًا أعمى. إيمانًا جنونيًّا رهيبًا. ويا للبهجة التي فاضت من كياني حينذاك! كل ما كنت أريده أن يأتي الغد. ورفضت أن أعترف بسوء الطالع، أو أتوقع النكبة، برغم الأعراض البادية.
ومع أن الغشاوة كانت قد سقطت، فإن العقل لم يكن قد ثاب إليَّ تمامًا في ذلك الوقت. ولم يثب إليَّ لمدة طويلة. طويلة جدًّا إلا اليوم فقط.
ولكن كيف كان من الممكن أن يثوب عقلي إليَّ قبل ذلك؟ كانت حية، وكانت هناك، أمامي، وكنت بجوارها. وكنت أقول لنفسي:
- عندما تستيقظ سأقول لها هذا كله، وستتبين كل شيء. هكذا كان تفكيري حينئذ، بسيطًا واضحًا. ولكم كنت منتشيًا متحمسًا. وكانت الرحلة إلى بولونيا لها السيادة في تفكيري، وتأتي في المقدمة. ولسبب ما كنت أتخيل أن بولونيا هي كل شيء، وفيه المفتاح المفضي إلى شيء حاسم.
- إلى بولونيا، إلى بولونيا!
لكم كنت أتعجل قدوم الصباح بصبر نافد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# (3)
# وفهمت كل شيء

يذهلني مجرد التفكير في أن ذلك حدث منذ بضعة أيام. منذ خمسة أيام. خمسة أيام فقط. يوم الثلاثاء الماضي!
كلا! كلا! لو أتيح لي فقط مزيد من الوقت. أكثر قليلًا من هذا. لو أنها انتظرت فقط برهة أخرى لكنت بددت عنها هذا الوجوم، ولهدأت. أجل، لهدأت!
وفي اليوم التالي مباشرة استمعت لما قلته لها وعلى شفتيها ابتسامة. برغم ما انتابها من حيرة وارتباك...
حيرتها. أو لعله كان خجلها، كان ذلك هو الشيء الرئيسي الذي ارتسم على محياها في هذه الأيام الخمسة. وكانت خائفة أيضًا. خائفة جدًّا. ولست أنكر هذا. لن أقع في تناقضات مجنونة. كانت خائفة، ولكن كيف كان بوسعها ألا تشعر بالخوف؟
كنا قد غدونا غريبين، كل منا بالنسبة للآخر، وإذا بهذا كله يحدث فجأة. ومع ذلك تجاهلت خوفها، لأني كنت مبهورًا زائغ البصر بما تراءى لي من صورة حياتنا الجديدة!
إنه الحق. الحق الصراح الذي لا مرية فيه، أنني ارتكبت خطأ. ففي اليوم التالي مباشرة (وكان يوم أربعاء) ارتكبت خطأ فادحًا منذ استيقظت من نومها. لقد اتخذتها صديقة لي فجأة. كنت متسرعًا. متسرعًا أشد التسرع. ولكني كنت بحاجة إلى اعتراف. أكثر منه بكثير.
ولم أخفِ عنها شيئًا. حتى تلك الأشياء التي ظللت طول حياتي أخفيها عن نفسي. أخبرتها بصراحة أنني كنت طيلة ذلك الشتاء واثقًا بحبها، ولم تخامرني أي فكرة أخرى. ووضحت لها أن محل رهوناتي لم يكن شيئًا أكثر من فقداني قوة الإرادة والعقل، وأنه كان فكرتي الخاصة التي ارتأيتها لتعذيب ذاتي وتمجيد ذاتي.
وقلت لها إنني فعلًا كنت جبانًا في مقصف المسرح تلك الليلة بسبب فرط حساسيتي، فجعلني الموقف أنكمش وأتضاءل، لأني توهمت أنني لو نهضت من مكاني وواجهت ذلك الضابط، فجأة، لبدا الأمر كله سخيفًا.
لم تكن المبارزة هي التي أفزعتني، بل تخيل ظهوري بمظهر سخيف أو أحمق. وكان الوقت قد فات فيما بعد للاعتراف بخطئي. وهكذا جعلت الجميع يقاسون ويتعذبون. وجعلتها أيضًا تعاني وتتعذب بسبب هذا. ولهذا تزوجتها، كي أجعلها تتعذب لهذا السبب.
وكنت على الجملة أتحدث كمن يهذي في حرارة الحمى معظم الوقت. وتناولت يدي في يديها من تلقاء نفسها، وتوسلت إليَّ أن أكف عن الكلام.

- أنت تبالغ... وتعذب نفسك!
ثم أنشأت تبكي مرة أخرى، ومرة أخرى انتهى البكاء بما يشبه النوبة. وظلت تناشدني ألا أقول لها شيئًا من هذا كله، وألا أتذكر ما فات.
ولم أعر توسلاتها، هذه اهتمامًا. بولونيا! شمسنا. شمسنا الجديدة هناك! ولم يعد بوسعي أن أتكلم عن أي شيء آخر. وأغلقت محل رهنياتي، وسلمت أعمالي إلى دوبرونرافوف. ثم سألتها فجأة ألَا تحب أن نوزع كل ما نملكه على الفقراء؟ كل ما نملكه عدا رأس المال الأصلي الذي ورثته من والدتي بالعماد، وهو ثلاثة آلاف روبل، التي يمكننا أن ننفقها على رحلتنا إلى بولونيا، وعند عودتنا من هناك نعمل كي نكسب قوتنا، بادئين الحياة بداية جديدة.
وهذا ما استقر عليه عزمنا، لأنها لم تقل شيئًا، بل ابتسمت فحسب. ولا بد من أن لباقتها هي التي أوحت إليها أن ترتجل تلك الابتسامة، حتى لا أشعر بما يجرح شعوري.
وتبينت بوضوح أني لم أكن مضجرًا ولا مزعجًا لها. أرجوكم لا تظنوا بي أنني كنت من الغباء أو الغفلة بحيث لا أرى شيئًا كهذا. بل كنت أرى كل شيء وأفهم كل شيء على أتم وجه، وكان قنوطي واضحًا لا خفاء فيه.
وتحدثت إليها كثيرًا عني، وعنها. وعن ليوكيريا أيضًا، وأخبرتها أني بكيت... ودأبت على تغيير مجرى الحديث أيضًا، محاولًا إبعادها عن تذكر أمور معينة. وأشرق محياها واستردت مرحها مرة أو مرتين. فيما أذكر. بل أذكر هذا جيدًا. لماذا تقولون إنني كنت أنظر ولكن لا أرى شيئًا؟
آه، لو أن "هذا" لم يحدث! لكان من الممكن بعث كل شيء. لأنها ذكرت لي فعلًا - وكان ذلك أمس الأول فقط، عندما مس حديثنا موضوع الأدب والكتب التي قرأتها في غضون هذا الشتاء - وحدثتني عن ذلك المشهد في رواية "جيل بلاس" بينه وبين مطران غرناطة. وكانت تضحك وهي تقصه عليَّ. وكان ضحكها عذبًا جدًّا، وبريئًا للغاية، كضحكها قبل أن تغدو خطيبتي (يا للحظة السريعة الزوال!) وكنت سعيدًا جدًّا بهذا!
ومع هذا أذهلني حديثها لي عن مطران غرناطة على هذا النحو، فمعنى هذا أنها لم تكن مضطربة، وكانت سعيدة سعادة كافية وافية في عزلتها تلك عني في الشتاء، بحيث استطاعت أن تستمتع بإحدى روائع الأدب.
كان معنى هذا أنها تعودت الموقف، واطمأنت نفسها إلى فكرة أنني سأتركها على هذا النحو.
- وأنا التي حسبتك ستتركني على الدوام على هذا النحو.
هذا ما قالته في يوم الثلاثاء ذاك. وإنها لفكرة جديرة بفتاة في العاشرة من عمرها! وصدقت هي هذه الفكرة. صدقت أن كل شيء قمين حقًّا أن يمضي "على هذا النحو"، تجلس هي طول الوقت إلى مائدتها، وأنا إلى مائدتي، ونظل مثابرين على هذه الوتيرة حتى سن الستين. وهأنذا فجأة آتي إليها زوجًا، إي والله زوجًا ينشد لديها الحب! يا له من سوء فهم! ويا لعمايتي!

وكان خطأ آخر من جانبي أنني حدقت فيها منتشيًا جذلان، وكان ينبغي أن أكبح عاطفتي، أن نشوة الجذل روعتها. ولكنكم تعلمون أني كبحت عاطفتي، ولم أعد لتقبيل قدميها، ولم ألمح مرة واحدة إلى أنني... أعني إلى أنني زوج. وما من شيء كان أبعد من هذا عن تفكيري. كل ما صنعته أنني تعبدت إليها. ولكن لم يكن باستطاعتي أن أظل صامتًا تمامًا، بل كان لا بد أن أقول شيئًا ما!
وفجأة ذهبت وقلت لها إنني أستمتع بحديثها غاية الاستمتاع، وأعدها أوسع اطلاعًا وأفضل تعليمًا مني بما لا يقاس. فاحمر وجهها جدًّا وقالت لي إني أبالغ. وعندئذ ما كان أشد حماقتي عندما أفضيت إليها بمبلغ إعجابي بها عندما أنصت وأنا واقف وراء الباب إلى مبارزتها البريئة مع ذلك الهيم، وكيف أعجبت بذكائها وقريحتها المتوقدة، مع الخلو التام من التصنع. وبدا كأنه رجفة سرت في أوصالها، وغمغمت مرة أخرى تقول إني مبالغ. بيد أن سحابة عبرت بمحياها. ودفنت وجهها في يديها وأنشأت تنتحب.
لقد كان هذا أكثر مما يمكن أن أحتمل، فوقعت راكعًا على ركبتي أمامها مرة أخرى، وشرعت أقبل قدميها. ومرة أخرى انتهى هذا كله بنوبة هستيرية كما حدث يوم الثلاثاء الماضي. وحدث هذا الليلة الماضية، وفي الصباح...
في الصباح؟ يا لي من مجنون. ذاك الصباح كان اليوم، منذ فترة وجيزة، وجيزة جدًّا...!
اسمعوا وحاولوا أن تفهموا: عندما التقينا على الإفطار هذا الصباح (بعد نوبة الليلة الماضية، وألقوا إلى هذا بالكم!) أدهشتني تمامًا بهدوئها. أرأيتم؟ وأنا الذي قضيت الليل كله يقظان، أرتجف خوفًا بسبب ما حدث بيننا في الليلة السابقة. وها هي تقبل نحوي على الفور فجأة، وتقف أمامي وقد تشابكت يداها في توسل وضراعة (منذ برهة وجيزة فقط!) وتقول لي إنها مجرمة وتعرف أنها مجرمة، وأن جريمتها عذبتها طيلة شهور الشتاء. بل وتعذبها الآن أيضًا. وأنها تقدر سماحتي حق قدرها...
- وسأكون لك الزوجة الأمينة الوفية. وسأجلك وأحترمك. فوثبت واقفًا على قدمي، وعانقتها بجنون، وقبلتها، قبلت وجهها، وشفتيها، كما ينبغي للزوج أن يقبل زوجته بعد فراق طويل.
ولماذا خرجت حينئذ من البيت؟ إني لم أغب عن البيت إلا ساعتين اثنتين، كي أحصل على تأشيرات الخروج في جوازي سفرنا. يا إلهي! ليتني عدت قبل ذلك بخمس دقائق فقط...
يا لذلك الزحام عند بوابتنا، ويا للنظرات التي رموني بها... يا إلهي!
تقول ليوكيريا (أوه! لن أدع لوكيريا تتركني الآن، فهي تعرف كل شيء، لأنها كانت معنا طول الشتاء، وستخبرني بكل شيء) ليوكيريا تقول إنها بعد انصرافي وقبل عودتي بحوالي عشرين دقيقة دخلت إلى حجرتنا كي تطلب من سيدتها شيئًا ما، لست أذكر الآن، ما هو، قرأت أيقونتها (أيقونة العذراء

المقدسة) قد أنزلت عن الجدار، ووضعت على المائدة أمامها، فبدا كأن السيدة كانت قد فرغت لتوها من الصلاة، فصاحت ليوكيريا:
- سيدتي العزيزة!
فقالت السيدة:
- ليس هذا شيئًا يا ليوكيريا. اذهب الآن. بل انتظري يا ليوكيريا.
ثم اتجهت إلى ليوكيريا وقبلتها. فسألتها ليوكيريا عندئذ:
- أسعيدة أنت يا سيدتي؟
- أجل يا ليوكيريا.
- كان ينبغي على السعيد أن يأتي ويطلب منك الصفح قبل الآن بأمد طويل. ولكن لله الحمد على أنكما قد أصلحتما ذات بينكما أخيرًا...
فابتسمت السيدة عندئذ ابتسامة غريبة جدًّا وقالت:
- حسنًا يا ليوكيريا. انصرفي الآن.
وكانت هذه الابتسامة من الغرابة بحيث أن ليوكيريا رجعت بعد عشر دقائق لتلقي نظرة أخرى عليها.
- ورأيتها هناك واقفة متكئة على الحائط، لِصق النافذة، وقد أسندت رأسها إلى ذراعها الذي كان موضوعًا على الجدار. كانت واقفة تفكر بل كانت غارقة في التفكير بحيث أنها لم تسمعني قط وأنا أقف في فرجة الباب كي أرقبها. وخيل إليَّ أنها كانت تبتسم، وهي واقفة هناك. كانت تبتسم وهي تفكر، وألقيت عليها نظرة أخرى، ثم استدرت وابتعدت على أطراف أصابعي. وأنا أعتقد أنها تفكر في أشياء لقطع الوقت. ثم فجأة سمعتها تفتح النافذة. فأسرعت عائدًا إليها لأحذرها من برودة الجو خوفًا عليها أن تصاب بنوبة برد، وإذا بي أراها فجأة وقد صعدت إلى حافة النافذة، ووقفت هناك بطولها كله في النافذة المفتوحة، وظهرها إلى ناحيتي، والأيقونة المقدسة في يديها. وغاص قلبي بين جنبي، وصرخت "سيدتي! سيدتي" فسمعتني. وكأني بها أرادت أن تستدير نحوي، ولكنها لم تستدر، بل خطت إلى الأمام، ضامة الأيقونة إلى صدرها، وقفزت من النافذة!
وكل ما أذكره أنني عندما دخلت من البوابة كان جسدها لم يزل دافئًا. وكان الجميع يحدقون في. وكانوا جميعًا يصرخون. ولكنهم الآن صمتوا فجأة، وأفسحوا لي الطريق.. وهي هناك ملقاة على الأرض ومعها الأيقونة.
وأتذكر كما لو كنت اخترقت غمامة سوداء واتجهت نحوها، ونظرت إليها من فوق برهة طويلة. وتجمع كل الناس حولي، يقولون لي شيئًا ما. وكانت ليوكيريا هناك، ولكني لم أرها. وقالت لي فيما بعد أنها كلمتني وقتئذ، وكل ما أذكره ذلك الحرفي الذي صرخ في وجهي، وظل يكرر صراخه:
- لقد نزفت حفنة من الدم من فمها. حفنة من الدم! حفنة من الدم!
وأراني الدم على أحجار الطريق أمامي وأعتقد أنني لمست الدم بأصبعي، فتكونت على أصبعي لطخة رحت أحدق فيها (أذكر هذا جيدًا) في حين لبث

الرجل يصيح بي:
- حفنة من الدم! حفنة من الدم!
ويقولون إني عندئذ صرخت بأعلى صوتي:
- وما الحفنة؟ ما الحفنة؟
وأنني رفعت أيضًا ذراعي، واندفعت نحوه...
إنه لجنون! شيء غير مفهوم ألا يصدقه العقل! مستحيل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (4)
# متأخرًا خمس دقائق بالضبط

أليس هذا شيئًا لا يصدق؟ أمن الممكن لأي أحد أن يقول إن شيئًا كهذا ممكن؟ لماذا ماتت هذه المرأة؟ لماذا؟

صدقوني عندما أقول إنني فاهم، ولكن لماذا كان عليها أن تموت؟ هذا السؤال لم يزل قائمًا. لقد أفزعها حبي. وسألت نفسها بأمانة أينبغي أن تقبله أم ترفضه؟ ولكن السؤال كان أضخم من أن تتحمله، لذا اختارت الموت.

أعرف. أعرف أنه لا جدوى من نبش مخي، لقد بذلت وعودًا أكثر مما ينبغي بكثير، وخافت ألا تستطيع الوفاء بها. هذا واضح. وهناك بعض اعتبارات في هذه المسألة أفظع من أن يتأملها المرء.

لماذا ولأي غرض ماتت؟ هذا السؤال يظل قائمًا. ويدق رأسي كالمطارق. لقد كنت مستعدًّا أن "أتركها على هذا النحو" لو أن هذه كانت رغبتها، ولو أنها أرادت لكل شيء أن يظل على حاله، أي "على هذا النحو". ولكنها لم تصدق أنني يمكن أن أصنع هذا، وهذا هو السبب! لا. لا. بل أنا أكذب. لم يكن هذا هو السبب إطلاقًا. بل السبب ببساطة أنه كان لا بد لها أن تحبني بكل الوسائل وكأنها تحبني حقًّا، وليس على النحو الذي كان من الممكن أن تحياه مع ذلك التاجر البدين. ولما كانت من الطهر والنقاء بحيث لا يمكن أن توافق على بذل حب كالذي يطلب منها ذلك التاجر، لذا لم تستطع أن تحمل نفسها على خداعي. رفضت أن تخدعني بنصف، أو ربع حب، مموهًا في صورة حب حقيقي صادق. وكانت أخلص وأصدق من أن تأتي شيئًا كهذا. وأنا الذي كنت أهتم بغرس السماحة والسخاوة في قلبها ذات مرة! يا لها من فكرة خرقاء!

وإني لشديد الفضول كي أعرف أكانت تحترمني أم لا. لست أدري أكانت تزدريني أم لا. ولا أظنها كانت تزدريني. غريب هذا الأمر، أليس كذلك؟ إنه لم يخطر لي قط طوال شهور الشتاء أنها تزدريني! كنت مقتنعًا تمامًا بالعكس، حتى اللحظة التي رمقتني فيها بدهشة صارمة. فقد كانت صارمة حقًّا. وعندئذ ومض في ذهني فجأة أنها تزدريني. فهمت هذا فهمًا لا رجعة فيه، وإلى أبد الآبدين.

وماذا لو أنها كانت تزدريني، ألا فلتزدريني طيلة حياتها، بشرط أن تظل على قيد الحياة! لقد كانت تتحرك وتغدو وتروح هنا وهناك، وتتكلم منذ برهة وجيزة. فكيف إذن قفزت من النافذة؟ هذا شيء يتجاوز قدرتي على الفهم.. وهل كان من الممكن أن أتوقع شيئًا كهذا منذ خمس دقائق؟

واستدعيت ليوكيريا. لن أترك ليوكيريا تفارقني الآن، بالغًا ما بلغ الثمن!

لقد كان في إمكاننا الوصول إلى تفاهم. ولم تدب الوحشة والغربة بيننا إلا من خلال فصل الشتاء، ولكننا طبعًا كان من الممكن أن نستعيد مألوفنا من جديد؟ ما الذي يمنع أن نغدو صديقين ونستأنف الحياة مرة أخرى؟ وإني لسمح، وكذاك هي، وهاكم حلقة اتصال إذن فيما بيننا. وكانت تكفي عدة كلمات أخرى، في مدى يومين لا أكثر، كي يفهم كل منا صاحبه.
إن أسوأ ما في الأمر كله أنه حدث بمحض الصدفة، صدفة عادية قاسية وخالية من المعنى. وهذا أسوأ ما في المسألة! خمس دقائق فقط، ولو أنني جئتها مبكرًا، لكانت كفيلة أن تحول تلك اللحظة الجنونية إلى هباء، وما كانت لتدخل رأسها مرة أخرى. والوحدة الموحشة تحدق بي، والساعة ذات البندول تتأرجح وتدق بدون رحمة أو اكتراث بشي. فلا أحد هناك. وهذا أسوأ ما في الأمر.
وظللت أذرع الحجرة جيئة وذهابًا، وذهابًا وجيئة، وأعرف من غير أن تنطقوا بحرف أنكم ترون من السخف إلقائي الملام على عاتق الصدفة العارضة، ألا وهي وصولي متأخرًا خمس دقائق ولكن هذا بديهي. تأملوا هذه النقطة، إنها لم تترك وراءها ولو قصاصة تقول فيها إنها انتحرت. قتلت نفسها بنفسها، كما يصنع سائر المنتحرين. وطبعًا كان لا بد أن يخطر لها أن الشك قد يلقى على ليوكيريا:
- كنت وحدك معها. فأنت التي دفعتها من النافذة!
أو شيء من هذا القبيل. ومع أن ليوكيريا لا ذنب لها، فإنهم كانوا خليقين أن يجروها قطعًا إلى ساحات المحاكم، لولا هؤلاء الأربعة الذين رأيتهم في الفناء الذين قالوا إنهم رأوها، أما من نوافذهم في الجناح المقابل، أو من الفناء السفلي، وهي واقفة على حافة النافذة والأيقونة في يديها، ثم رأوها تقفز.
ولكن هذا كله كان بمحض الصدفة، ولولا الصدفة لما كانوا هناك ولما رأوا.. فالمسألة كلها إذن اختمرت وتمت في لحظة خاطفة. بدافع من الخيال الجامح! وماذا في أنها كانت جالسة إلى المائدة تصلي؟ ليست كل صلاة بالضرورة تسبق الموت.
إن هذه اللحظة قد لا تتجاوز بكل مراحلها عشر دقائق. ولعلها وصلت إلى اتخاذ القرار في تلك الدقيقة التي وقفت فيها متكئة على الجدار، واضعة رأسها على ذراعها، وكنت تبتسم وهي تفكر. وومضت الفكرة في رأسها، فأحدثت فيه دوامة لم تستطع مقاومتها أو تحملها.
كانت المسألة سوء تفاهم. وهذا بين، أيًّا كان ما تقولون. وأنا لم أكن شخصًا تعسر معايشته. أم من الممكن أن يكون السبب فقر الدم (الأنيميا)؟ إني أتساءل! ألعل السبب ما أصابها من الأنيميا التي قوضت حيويتها؟ لقد أنهكها هذا الشتاء المنصرم. هذا هو السبب...
ووصلت أنا متأخرًا!

لكم تبدو صغيرة الحجم شديدة التحول في تابوتها، ولكم يبدو أنفها حادًّا! وأهدابها مثل سهام صغيرة فوق خديها. ثم ما أغرب الطريقة التي سقطت بها من شاهق! لا شيء فيها تكسر أو تحطم. كل ما هناك تلك "الحفنة من الدم" ملء ملعقة متوسطة الحجم مما تؤكل به الحلوى. نزيف داخلي.
فكرة غريبة تساورني، ماذا لو أنها لم تدفن؟ لأنهم أخذوها، عندئذ... أوه. لا! يكاد يكون مستحيلًا أن أتركهم يأخذونها. وأنا مدرك طبعًا أنهم لا بد آخذيها، فلست مجنونًا ولا مخرفًا، بالعكس! إن عقلي لم يكن قط بهذا الصفاء. لكن كيف يمكن أن يأخذوها، سيعود البيت عندئذ وليس فيه أحد. ومرة أخرى تغدو الحجرتان خاويتين، وأصبح وحدي في محل رهنياتي! إني أهذي. أهذي هذيان لا ريب فيه! لقد عذبتها أكثر مما تطيق. وهذا هو السبب.
وماذا يهمني الآن من قوانينكم؟ وما جدوى عاداتكم وأخلاقياتكم وعالمكم ودولتكم وعقيدتكم لي؟ دعوا قاضيكم يحاكمني، وخذوني إلى المحكمة، إلى محكمتكم العامة العلنية، وهناك سأقول إني أتحدى كل شيء. وسيصيح القاضي:
- آمرك بالسكون أيها الضابط!
وسأرد على صياحه بصياح مثله:
- أي سلطة لك الآن لإرغامي على السكوت؟ لماذا حطمت الجهالة أعز ما عندي؟ ما جدوى قوانينك الآن لي؟ سأعتزلكم جميعًا!
لست أبالي شيئًا!
إنها الآن عمياء. عمياء. ميتة لا تستطيع أن تسمع. إنك لا تعلمين أي فردوس كنت سأقيمه لك كي تعيشي فيه. لأنه كان في قلبي فردوس. وكنت سأخلعه عليك. وحتى وإن لم تمنحيني حبك، لا بأس! ماذا في ذلك؟ كان كل شيء سيظل على هذا النحو. وكان في وسعك أن تتحدثي إليَّ كصديق. وكنا سنبتهج بهذه الأحاديث ونضحك معًا، وينظر كل منا بسعادة في عيني صاحبه. وهذا كل شيء. وحتى إن عشقت رجلًا آخر، لا بأس أيضًا. لا بأس! كنت أدعك تسيرين معه وتبتسمين، في حين أنظر إليك عبر الشارع. أوه. لا شيء يهم أبدًا، لو أنها فتحت عينيها مرة واحدة فحسب! للحظة واحدة. واحدة فقط! لو أنها نظرت إليَّ كما نظرت صباح هذا اليوم نفسه عندما وقفت أمامي وأقسمت أن تكون لي الزوجة الأمينة الوفية! في هذه النظرة الوفية! في هذه النظرة الواحدة كانت خليقة أن تفهم كل شيء.
فراغ وهباء أنت أيتها الطبيعة! البشر متواجدون فوق هذا الكوكب. وهذه هي الآفة.
- أهناك أحد يعيش في هذا الحقل؟
هكذا يصيح البطل في أسطورة روسية. ومع أني لست بطلًا أسطوريًّا، فإني أرسل نفس الصيحة، وما من مجيب. يقولون إن الشمس تمنح الكون الحياة. وها هي الشمس مشرقة، وها هي - انظروا - ألا ترونها ميتة؟ كل شيء مات،

والموتى راقدون في كل مكان. بشر متوحدون، يلفهم الصمت في كل مكان. هذا هو العالم الذي نعيش فيه.
- أيها الناس! أحبوا بعضكم بعضًا!
من قال هذا؟ وصية من هذه؟ الساعة تدق بفظاعة، وبلا شعور. الساعة الآن الثانية صباحًا. وحذاؤها بجوار فراشها. كأنه ينتظرها.
والآن، أحقًّا سيأخذونها إلى بعيد غدًا؟ وماذا تراني أصنع أنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# حادث مؤسف للغاية

# (1)

وقع الحادث المؤسف عندما بدأت تلك الوثبة المتحمسة الساذجة المؤثرة لإنهاض وطننا العزيز، فاشتعلت عقول جميع أبنائه الميامين بآمال جديدة وبالرغبة الشديدة في مصير جديد. وذات ليلة صافية كثيرة الصقيع من ليالي الشتاء، وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة، جلس ثلاثة من علية السادة في حجرة فاخرة الأثاث بقصر فخم مشيد من طابقين في بطرسبرج. منهمكين في حديث رفيع المستوى يدور حول موضوع مثير للاهتمام وشائق للغاية. وكل واحد من هؤلاء السادة الثلاثة حائز لرتبة جنرال. وكانوا جالسين حول مائدة صغيرة، في مقاعد وثيرة، يحتسون الشمبانيا في هدوء وهم يتسامرون ويتناقشون. وكانت الزجاجة على المائدة في دلو فضي مملوء إلى نصفه بالثلج. ورب القصر هو المستشار ستيبان نيكيفورفتش نيكيفوروف، أعزب في الخامسة والستين. وهو الليلة يحتفل بانتقاله إلى هذا المسكن الجديد الذي اشتراه حديثًا، ويحتفل في الوقت نفسه بعيد مولده الذي تصادف حلوله في هذا اليوم، ولم يكن احتفل به من قبل. ولم يدعُ لهذه المناسبة إلا ضيفيه هذين, وكل منهما زميل سابق له، ومرءوس له حاليًّا. وأسماهما سيميون إيفانوفتش شيبولنكو، وإيفان إيلنش برالنسكي. وقد حضرا في حوالي الساعة التاسعة لتناول الشاي، ثم شرع ثلاثتهم في احتساء الشمبانيا، ويعلم الضيفان جيدًا أن عليهما في منتصف الثانية عشرة بالضبط أن يعودا إلى بيتهما، لأن مضيفهما يلتزم في معيشته مواعيد دقيقة محددة.

ونذكر هنا كلمة موجزة عن المضيف. لقد بدأ حياته العملية موظفًا متواضعًا كادحًا. وظل يكدح خمسًا وأربعين سنة حتى وصل إلى منصبه هذا. وهو حريص لارتكاب ما يخالف الشرف. وهو أعزب عن أنانية. وهو ليس غبيًّا ولا أحمقًا، ولكنه لا يظهر ذكاءه ولا يحب أن يعرضه. وأبغض شيء إليه سوء النظام أو الفوضى، والحماسة في أي مجال، لأنه يعد الحماسة فوضى وسوء نظام. وقد غدا في السنوات الأخيرة مستغرقًا في الاستمتاع بالحياة الرخية المرفهة في وحدته التي ألفها. وقد يحدث أحيانًا أن يزور قلة قليلة من علية القوم، ولكنه منذ مطلع شبابه كان يكره القيام في بيته بدور المضيف. وما أكثر ما كان يستطيب صحبة الساعة التي لا يسمع في البيت الصامت صوت غير صوتها الذي يصغي له الساعات الطويلة في صبر لا ينفد، وهي قابعة مواجهته تحت قبتها الزجاجية فوق رف المدفأة.

وهو من حيث المظهر رجل محترم جدًّا، حليق الوجه، لا يبدو عليه سنه، وتبشر صحته بعمر مديد. وسلوكه دائمًا في حدود سلوك السادة المهذبين. ومنصبه (مستشار بالمجلس الخاص) مريح جدًّا، لا يقتضي منه إلا حضور بعض الاجتماعات وتوقيع بعض الأوراق. وقصارى القول إنه معدود من الرجال

الممتازين. ولم تكن له إلا أمنية واحدة أو هدف واحد غلاب، أن يمتلك بيتًا خاصًّا به يليق بسيد محترم مثله في هذا الحي الراقي، وله حديقة واسعة، وبعيد عن الشوارع العامة. وقد وفقه الله إلى هذا القصر الفاخر الأنيق البعيد عن الطرق المطروقة. وراقه هذا لأنه لا يحب أن يطرق الناس بيته كثيرًا، والانزواء أحب إليه. وليس هذا البعد عن العمران الكثيف مصدر ضيق له، لأنه يركب إلى الديوان عربة بلون الشوكولاتة، وله حوذي اسمه "ميخي" وحصانان صغيران ولكنهما فتيان جميلان.
وكان هذا كله ثمرة أربعين سنة من الاقتصاد، بل التقتير، ولذا كان سعيدًا جدًّا بكل ما يحيط به من آثار اجتهاده ومثابرته. ولفرط سعادته بهذا النجاح، رأى أن يحتفل بشراء القصر، وبعيد ميلاده، كنوع من التكريم والمكافأة لشخصه، بدعوة هذين السيدين الأمثلين، مع أنه كان يخفي من قبل موعد هذا العيد عن أخص أصدقائه.
والواقع أنه كان له أمل فيما يتعلق بأحد هذين الضيفين. فهو شخصيًّا لا يشغل إلا الطابق العلوي من قصره، ولذا فهو بحاجة إلى مستأجر للطابق السفلي الذي أثثه على نفس المنوال بالضبط. وكان ستيبان نيكيفوروفتش يعول في هذا على سيميون إيفانوفتش شيبولنكو، ولذا وجه الحديث مرتين هذه الوجهة أثناء السهرة، بيد أن سيميون أبى أن ينزلق إلى الفخ. فهو أيضًا رجل نحت مستقبله ووصل إلى مكانته بالدأب البطيء. وهو ذو شعر أسود ولحية سوداء، وفي وجهه دائمًا مسحة ضاربة للصفرة. وهو متزوج، ويحب البقاء في البيت، حيث يسوس أسرته بالرهبة والرعب. وهو أيضًا شديد الوعي لمكانته التي وصل إليها، ويمارس مهام منصبه بكل ثقة واعتداد. وهو في الوقت نفسه واعٍ بما لا سبيل له إلى بلوغه من المناصب الأعلى، قانع بما هو مستطاع لمثله. وينظر بشيء من الغل إلى العهد الجديد الذي بدأ فجره يبزغ، بيد أن هذا كله لا يسبب له فزعًا كبيرًا، لأنه واثق بنفسه. لذا كان يصغي لحديث إيفان إيلتش برالنسكي (ثاني الضيفين) حول المسائل الجديدة المطروحة حاليًّا في الساحة بشيء من الزراية والسخرية.
وينبغي أن ندرك أن ثلاثتهم الآن - بعد الحادية عشرة - قد صاروا في حالة خفة نسبية، حتى لقد سمح المضيف لنفسه بالدخول في جدل مع إيفان إيلتش حول هذا العهد الجديد. ولا بد لنا الآن من كلمة عن صاحب السعادة برالنسكي، ولا سيما أنه بالذات بطل هذه القصة.
إنه مستشار الدولة إيفان إيلتش برالنسكي الذي لم يرقَ إلى صاحب السعادة إلا منذ أربعة أشهر. أي أنه "جنرال" حديث العهد، لم يزل (بشوكة) كما يقولون في اللغة الدارجة. وهو من حيث العمر لم يزل شابًّا، لم يتجاوز الثالثة والأربعين. إلا أنه من حيث المظهر يبدو أصغر من هذه السن، وهذا ما يروقه فعلًا. وهو طويل القامة، وسيم، شديد الزهو بأناقة ملبسه ويزينه بالوسام الذي حصل عليه بالترقية الأخيرة. ويتصنع الحركات الأرستقراطية التي تعلمها

في طفولته. ومع أنه أعزب، فإنه يحلم بعروس ثرية، ولعلها أيضًا تكون أرستقراطية. وهو كثير الأحلام، وإن لم يكن غبيًّا. وله غرام بالشئون البرلمانية، متتبع لتطوراتها، وينحدر من أسرة طيبة، فهو ابن جنرال، وميال للغندرة. وكان في طفولته يرتدي القطيفة والخز، ويذهب إلى مدرسة أرستقراطية. ومع أنه لم يتعلم فيها الكثير من فنون المعرفة، فإنه نجح في عمله بالديوان. وارتقى أخيرًا - وبسرعة - إلى رتبة جنرال. ويعده رؤساؤه رجلًا ذا مقدرة. ويعقدون عليه الآمال، بيد أن ستيبان نيكيفورتش - الذي بدأ حياته العملية تحت رئاسته وظل يعمل معه معظم الوقت - لم يعده قط رجلًا ذا كفاءة خاصة، ولم يعلق عليه أي أمل على الإطلاق. ولكن يعجبه فيه على كل حال أنه سليل أسرة كريمة، ومن ذوي الأملاك، إذ أن له قصرًا كبيرًا مبنيًّا بالحجارة، يديره مدير خاص، ثم إنه يمت بالقرابة للكثيرين من علية القوم، ثم إنه حسن المحضر. وإن كان ستيبان نيكيفوروفتش ينطوي له في قلبه على استياء من خفته واندفاعات خياله.

وكان إيفان إيلتش شخصيًّا يشعر في بعض الأحيان أنه مفرط في الحساسية، بل سريع الهياج لأسباب قد تكون وهمية. وبين الحين والحين كانت تستولي عليه نوبات من الندم المرضي، كأنما يعاني من تأنيب الضمير بسبب غامض. وفي هذه الأوقات يعترف لنفسه في مرارة وألم عميق خفي أنه لم يخلق بالفعل إلى الآفاق التي كان يحلم بها. وعندئذ يغدو قانطًا مكتئبًا، ولا سيما عندما تؤلمه البواسير وتنغص عيشه، ويتهم نفسه بالخيبة، ويرمي حياته بالفشل. حتى أنه يكف عن الإيمان بمواهبه البرلمانية (بينه وبين نفسه طبعًا) وينعت نفسه بأنه "صاحب كلام" ومزخرف عبارات مزوقة وكفى. بيد أن هذا لا يمنعه بتاتًا - بعد نصف ساعة على الأكثر - من نفخ صدره بالهواء، في زهو وانشراح، مؤكدًا لنفسه بمزيد من الثقة والتبجح أن الفرصة لم تزل مواتية كي يظهر مواهبه الكبيرة، ويصبح من كبار الرجال الرسميين، بل ورجل دولة أيضًا تذكره روسيا إلى أمد طويل.

وكان في بعض الأوقات يتخيل صروحًا ونصبًا تذكارية مقرونة باسمه. وهذا يدل على علو طموح إيفان إيليتش. ولكنه يخفى في حنايا صدره أحلامه الشاهقة وطموحه الغامض. فهو على الجملة، وبإيجاز، رجل طيب، وله قلب شاعر. ولكن في السنوات القليلة الأخيرة بدأت نوبات من خيبة الأمل تستولي عليه في فترات متقاربة، فكان ذلك يجعله شديد الضيق، سريع الهياج، شكاكًا، بحيث يعد في هذه الأوقات أي معارضة له بمثابة إهانة. إلا أن "الروح الجديد" الذي بدأ يدب في روسيا ألهمه آمالًا جديدة. وقد أكدت هذه الآمال ترقيته أخيرًا رتبة جنرال، فقوي قلبه، وانتعشت نفسه، وشمخ برأسه. وأخذ لسانه يتدفق بالكلام البليغ في أحدث الموضوعات التي تشغل الرأي العام. في حماسة لكل جديد. بل صار يفتش عن فرص للكلام، ويكثر من

ارتياد مجتمعات المدينة ومجالسها، كي يجد لنفسه جمهورًا، فاشتهر بأنه "ليبرالي" متحمس. ولكم راقته هذه الصفة، بل هذا الإطراء.
وفي هذه الأمسية بالذات، وبعد ثلاثة أكواب أو أربعة من الشمبانيا، صار في حالة تجل. وتملكته الرغبة في أن يجعل ستيبان نيكيفوروفتش - الذي لم يره منذ مدة طويلة وكان دائمًا يحترمه ويجله - يغير آراءه في جميع الأمور.
ولسبب ما كان يعد ستيبان نيكيفوروفتش رجلًا رجعيًّا ولذا راح يهاجمه بكل قوته. ولم يحاول ستيبان أن يدافع عن نفسه، بل راح يبتسم في دهاء وهو صامت، مع أن الموضوع كان يشوقه جدًّا. وأخذت حمية إيفان إيلتش تشتد، وتحت وطأة ما خاله مناقشة حقيقية أكثر الحسو من كوبه في فترات متقاربة. وكلما رشف رشفة، تناول ستيبان الزجاجة وأعاد ملء كوب إيفان.
ولأمر ما بدا إيفان يرتاب في الموقف، ولا سيما أن سيميون إيفانوفتش - الذي كان يزدريه ازدراء شديدًا ويخافه في الوقت نفسه لخبثه الشديد - لزم جانب الصمت التام، مكتفيًا بالابتسام في فترات متقاربة، فومض في ذهن إيفان هذا الخاطر.
- لا بد أنهما يريان مناقشتي طفلية.
ولذا واصل كلامه بصوت عالٍ قائلًا:
- كلا يا سادة. لقد حان الوقت لمزيد من السلوك الإنساني. فالسلوك الإنساني في رأيي شيء عظيم. الرأفة بالمرءوسين، ذاكرين أنهم أيضًا بشر مثلنا. إن هذا المسلك الإنساني هو الذي سينقذ كل شيء، ويضع كل شيء في نصابه.
وندت من سيميون إيفانوفتش ضحكة مكتومة. واعترض ستيبان نيكيفوروفتش أخيرًا، وهو يبتسم ابتسامة مهذبة:
- لست أدري لماذا توبخنا بهذا العنف كله. وأعترف لك يا إيفان إيلتش أني لم أستطع أن أفهم بعد ما تحاول قوله لنا، أنت توصينا بالمسلك الإنساني الرحيم. إن هذا يعني محبة رفاقنا في البشرية، أليس كذلك؟
- بلى. محبة رفاقنا في البشرية، إن شئت، وأنا...
- لحظة واحدة من فضلك! المسألة كما أتصورها ليست هذا فحسب. إن محبة رفاقنا في البشرية كانت وصية مطلوبة دائمًا، ولكن الإصلاح الجديد لن يكتفي بهذا. فهناك مسائل متعلقة بالفلاحين، ومسائل قانونية، واقتصادية وأخلاقية، و.. و.. أي عدد آخر من المسائل التي برزت فجأة في الفترة الأخيرة، وتداخلت بحيث يمكن أن تسبب بلبلات وهزات كبيرة.. وهذا ما يجعلنا متلهفين ولسنا مجرد إنسانيين.
فقال سيميون إيفانوفتش:
- أجل، المسألة أعمق من هذا.
فقال إيفان إيلتش بسخرية لاذعة ونبرة ظاهرة الحدة بدون داعٍ:

- هذا شيء أفهمه جيدًا. واسمح لي يا سيميون إيفانوفتش أن أقول لك إني لا أطمع أن أباريك في عمق الفهم. ولكني سأجترئ على أن أقول لك يا ستيبان نيكيفوروفتش إنك لا تفهمني تمام الفهم.
- لست أفهمك فعلًا.
- ومع هذا فأنا أؤيد وأدعو في كل مكان للفكرة القائلة إن النزعة الإنسانية، ولا سيما بإزاء المرءوسين من الموظفين إلى الكتبة، ومن الكتبة إلى الخدم، والموزيك.. أقول إن النزعة الإنسانية خليقة أن تغدو حجر الزاوية في الإصلاحات المستقبلة والتجديد بوجه عام. لماذا؟ لأن الأمر هكذا! وإليكم هذا القياس: أنا إنساني إذن أنا محبوب. أنا محبوب إذن أنا موثوق بي. وأنا موثوق بي إذن أنا مصدق. وأنا مصدق إذن أنا محبوب. وأعني بهذا أن الناس إذا آمنوا إطلاقًا، فسوف يؤمنون بالإصلاح، وسيفهمون جوهر القضية، وسيعانق كل منهم الآخر معنويًّا، ويقرروا كل شيء في إطار الإخاء. ما الذي يضحك يا سيميون إيفانوفتش؟ ألم يكن ما قلته واضحًا؟
ورفع ستيبان نيكيفوروفتش حاجبيه في صمت. وقد أخذت منه الدهشة مأخذها. ورد سيميون إيفانوفتش بسخرية لاذعة قائلًا:
- أخشى أن أكون قد أفرطت في الشراب قليلًا. ولذا صرت بطيء المتابعة لما أسمع، وهي هفوة عارضة بلا شك.
وأجفل إيفان إيلتش، وقال ستيبان نيكيفوروفتش فجأة، بعد لحظة تفكير:
- لن يتسنى لنا أن نثابر على هذا النهج...
فيتساءل إيفان إيلتش عند سماع هذا من ستيبان نيكيفوروفتش:
- ماذا تعني بأن لن يتسنى لنا أن نثابر على هذا النهج؟
وكان واضحًا أن ستيبان نيكيفوروفتش لم تكن لديه رغبة في الإيضاح، لذا قال:
- لن تقدر على الاستمرار في ذلك..
فرد عليه إيفان إيلتش بشيء من التهكم:
- ألست تفكر في الخمر الجديدة إذا وضعت في زقاق قديمة؟
كلا يا سيدي. سأتولى الرد على هذا...
وفي هذه اللحظة دقت الساعة منتصف الثانية عشرة.
وقال سيميون إيفانوفتش وهو يهم بالنهوض من مقعده:
- أعتقد أن وقت انصرافنا قد حان.
ولكن إيفان إيلتش سبقه، ووثب بسرعة متناولًا من فوق رف المدفأة قلنسوته المصنوعة من الفراء. وقد بدا عليه الاستياء.
وقال ستيبان نيكيفوروفتش وهو يودع ضيفيه:
- حسنًا يا سيميون إيفانوفتش. فكر فيما قلته لك.
- أتعني بخصوص المسكن؟ طبعًا سأفكر في هذا.
- ومتى استقر رأيك، أبلغني هذا بأسرع وقت.

فقال إيفان إيلتش، وهو ينحني، عابثًا بأصابعه في قلنسوته:
- مسألة عمل، فيما أظن!
فقد أحس أنه خارج دائرة الحديث، ورفع ستيبان نيكيفوروفتش حاجبيه ولم يقل شيئًا، شأن من يريد ألا يؤخر انصراف ضيفيه. وأسرع سيميون في تحية الانصراف أما إيفان إيلتش فقال في نفسه:
- ليكن لك ما تريد، ما دمت لا تفهم التهذيب المتعارف عليه.
ثم بسط يده إلى ستيبان نيكيفوروفتش بما يشبه التحدي.
وفي البهو لفَّ إيفان إيلتش معطفه الثمين المبطن بالفراء حول جسمه، متظاهرًا بأنه لم يفطن إلى رتابة معطف سيميون إيفانوفتش، ثم هبطا الدرج كلاهما وقال إيفان إيلتش لسيميون إيفانوفتش الصامت:
- يبدو أن الشيخ استاء.
فأجاب الآخر ببرود:
- لا. وما الذي حملك على هذا الظن؟
فقال إيفان إيليتش في سره:
إِمَّعة!
وخرجا معًا إلى عريشة الباب. وأقبلت محفة سيميون إيفانوفتش التي يجرها حصان واحد غير جميل الشكل، رمادي اللون. صاح إيفان إيلتش عندما لم يجر عربته.
- بحق الشيطان! ماذا صنع تريفون بعربتي؟
ونظر هنا وهناك، ولكن لا أثر للعربة. ولم يكن لدى بواب ستيبان نيكيفوروفتش أي معلومات عنها وسأله حوذي سيميون، المسمى فارلام، فقال إن حوذي إيفان إيليتش والمركبة كانا موجودين طول الوقت، أما الآن فلا يدري أين اختفيا. وقال سيميون:
- هذا شيء مؤسف للغاية. أتحب أن أوصلك؟
وصاح إيفان إيلتش برالنسكي:
- يا لهؤلاء الخدم الأوغاد! لقد طلب مني هذا الكلب الإذن كي يذهب إلى عرس في هذا الجانب من المدينة لصاحبة له، عليها اللعنة. وحذرته بشدة من الذهاب، وأنا مستعد للمراهنة على أنه ذهب إلى هناك.
فقال الحوذي فارلام:
- أجل ذهب إلى هناك. ووعد بالعودة بعد دقائق، قبل خروجك.
- وهذه هي النتيجة، كنت واثقًا بأن هذا سيحدث. سأريه!
فقال سيميون، وهو يجذب الغطاء على ساقيه:
- الأفضل أن تبعث إلى مركز الشرطة ليجلدوه كما يجب. وبعدها سيحرص على تنفيذ أوامرك!
- أرجوك ألا تشغل بالك يا سيميون إيفانوفتش!
- كما تشاء. من السهل جدًّا أو أوصلك.

- مع السلامة. شكرًا لك.
وانطلقت عربة سيميون إيفانوفتش، ومشى إيفان إيلتش مبتعدًا، وهو يشعر بكدر شديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (2)

- سأريك يا وغد! سأعود. ماشيًا على قدمي كي أغيظك، وأفزعك! فسيعود ويكتشف أن سيده رجع ماشيًا، هذا الوغد.
ولم يكن حدث أبدًا من قبل أن إيفان إيلتش ترك العنان لغضبه على هذا النحو، ولكنه في الواقع كان شديد الفضول، ثم إن رأسه كان يدور، لأنه لم يكن حليف شراب، وخمس أو ست كؤوس كافية للتأثير فيه على الفور. بيد أن الليلة كانت جميلة، كثيرة الصقيع، وهادئة لا رياح فيها. بصورة غير معهودة. والسماء صحو وكثيرة النجوم. وضوء البدر يغمر الأرض بضياء فضي صامت. فكان لطيفًا ومستحبًّا أن يخرج فيها المرء. وما إن خطا إيفان إيلتش خمسين خطوة حتى نسي تقريبًا حظه العاثر، وتسلل إليه إحساس استثنائي بانتعاش العافية. بل ووجد شيئًا من السحر في البيوت الخشبية الصغيرة القائمة على جانبي الشوارع المقفرة، فقال لنفسه:
- كان خيرًا على كل حال أن أعود ماشيًا، وسيكون هذا درسًا لتريفون. وأما بالنسبة لي فهي لذة. والحقيقة أنه يجب عليَّ أن أمشي أكثر... وأنا واثق بأنه سأجد عربة أخرى في جادة بولشوي. يا لها من ليلة بديعة! ثم انظر إلى كل هذه البيوت الصغيرة! لعل في مثلها يعيش صغار الموظفين والكتبة... وربما الحرفيون أيضًا. آه من ستيبان نيكيفوروفتش! ويا لهم جميعًا من رجعيين، هؤلاء المسنون المحافظون! المحافظون! هذه هي الكلمة الصحيحة. ومع هذا فهو شخص بارع، فلديه هذا الحدس الصادق، وذلك الفهم العملي للأمور... ولكن آه من هؤلاء المسنين. إنهم يفتقرون إلى.. إلى - ما أسميه بالضبط؟ - لا يهم! إنهم جميعًا يفتقرون إليه. "لن يكون في وسعنا أن نواصل هذا" ماذا كان يعني بهذه العبارة. لقد تمهل وسكت قليلًا قبل أن يتفوه بهذه العبارة. ثم هو أيضًا لم يفهمني. وكيف يستطيع أي واحد ألا يفهم؟ عدم الفهم أصعب كثيرًا من الفهم. وأهم ما في الأمر أنني مقتنع، مقتنع تمام الاقتناع... السلوك الإنساني.. محبة المرء لأخيه الإنسان. أعد البشر إلى ذواتهم.. انعش احترامهم لذواتهم وعندئذ.. ابدأ من جديد بمادة جاهزة. هذا واضح وضوحًا كافيًا. أجل يا سيدي! تكرم بقبول هذا القياس يا صاحب السعادة، تقابل كاتبًا مثلًا، وهو كاتب فقير مظلوم. حسنًا... من أنت؟ ويأتينا الجواب. أنا فلان الكاتب في العمل الفلاني.. أتعمل؟ أعمل. أتريد أن تكون سعيدًا؟ أريد. ماذا يلزمك كي تكون سعيدًا؟ يلزمني كذا وكذا. لماذا؟ لأن... ويفهمني الرجل قبل أن أكون تفوهت بست كلمات... ويصير الرجل رجلي، يقع في شبكتي كما يقولون، وأستطيع عندئذ أن أصنع به ما أشاء. أعني لمصلحته. أما سيميون إيفانوفتش فصنف رديء من البشر. غير لطيف إطلاقًا. قال: "أرسله كي يجلدوه"! وقالها ليضايقني. أوه. كلا. بل اجلده أنت. أما أنا فلا. سأكتفي

بتخجيله بالكلمات والتقريع. سأخجل تريفون وسيشعر بذلك. وسترى. أما بخصوص استخدام العصا أو السوط فهذه مشكلة لم تحل بعد. وماذا عن الذهاب إلى مدموازيل أميران؟ يا للشيطان. اللعنة! ما أسوأ هذا الوصف الخشبي.

وصرخ فجأة وقد زلت قدمه، وأخذ يهدر ساخطًا:

- وهذه هي العاصمة! حيث التنوير! كدت أكسر قدمي! مم! كم أزدري وأمقت سيميون إيفانوفتش هذا... له سحنة قذرة. وكان هو الذي ضحك عندما قلت: "يتعانقون معنويًّا".. وماذا يضيرك من هذا. أما أنا فلن أعانقك أنت. أفضل على عناقك عناق أي موزيك ([2]) .. وإن قابلت الآن موزيكا سأقف وأتحدث إليه. وطبعًا كنت سكران عندما قلت هذا، ولعلني لم أحسن التعبير عن نفسي جيدًا. ولعلني الآن أيضًا لا أحسن التعبير عما بذهني. ربما؟ لن أشرب بعد الآن أبدًا. فعندما تسكر تتكلم أكثر مما ينبغي وتصبح في الغد نادمًا وتتمنى لو لم تتكلم كما تكلمت.. وهم جميعًا أوغاد على كل حال. كل واحد منهم وغد!

هكذا كان إيفان إيلتش يجادل نفسه في عبارات متكسرة، متقطعة، وهو ماض في سيره. وأنعشه الهواء وعمل على إفاقته تدريجًا. وإن هي إلا خمس دقائقَ أخرى حتى يكون قد هدأ وشعر بميل إلى النعاس. ولكنه سمع فجأة، على مسافة بضع خطوات من جادة بولشوي صوت موسيقا، فتلفت حوله، فإذا على الجانب الآخر من الطريق بيت خشبي متهدم جدًّا، لا يرتفع أكثر من طبقة واحدة، ولكنه طويل جدًّا. ومن هذا البيت تنبعث أصوات مرحة، وعزف رديء كالصرير لآلات موسيقية شتى، ولكن اللحن خاص برقصة رباعية مشهورة. وأمام نوافذ هذا البيت حشد صغير من الناس معظمهم نسوة في أثواب مبطنة، وعلى رءوسهن مناديل، يحاولن الوقوف على أطراف الأصابع كي يرين شيئًا من خلال خصاص النوافذ. إنه حفل بهيج ولا شك. ووقع أقدام الراقصين مسموع بوضوح على الجانب الآخر للطريق. ولمح إيفان إيلتش شرطيًّا غير بعيد فاتجه إليه، وسأله وهو يفتح معطفه الثمين بما يكفي كي يرى الشرطي الوسام الرفيع على صدره.

- منزل من هذا أيها الرجل الطيب؟

فأجابه الشرطي وهو يشد قامته وقد لمح علامة المنصب العالي:

- الموظف المدني بسلدومينوف. إنه يعمل مسجلًا.

- بسلدومينوف؟ ها! بسلدومينوف! وماذا يجري هناك؟ أهذا حفل زفافه؟

- أجل يا صاحب السعادة. إنه يزف ابنة مليكوبتاييف الذي كان موظفًا في المجلس البلدي. والبيت بائنة العروس.

- آه! إذن فالبيت صار بيت بسلدومينوف الآن وليس بيت مليكوبتاييف!

- بيت بسلدومينوف، يا صاحب السعادة. كان بيت مليكوبتاييف ثم صار بيت بسلدومينوف.

- لقد سألتك عن هذا لأني رئيسه. أنا جنرال في الديوان الذي يعمل به بسلدومينوف.
فزاد الشرطي من شد قامته، ولكن إيفان إيلتش بدا غارقًا في أفكاره وهو يسمع الشرطي يقول له:
- في خدمتك يا صاحب السعادة.
كان إيفان إيلتش يفكر. إن بسلدومينوف يعمل تحت رئاسته. في مكتبه. إنه يتذكره الآن. إنه موظف متواضع جدًّا ومرتبه حوالي عشر روبلات في الشهر. وقد تولى إيفان إيلتش يرالنسكي رئاسة هذا الديوان أخيرًا، ولم يكن المفروض أن يتذكر كل شيء عن كل مرءوسيه. بيد أنه تذكر تسلدومينوف بسبب غرابة اسمه... ولفت نظره عندما وقع نظره عليه مكتوبًا لأول مرة على ورقة أمامه. ولذا رمق صاحب الاسم بنظرة فضول عندما رآه. فإذا هو شخص صغير السن جدًّا، له أنف طويل أقنى، وشعر غزيز أشبه بالكتان في تلبده، نحيل جدًّا تبدو عليه آثار سوء التغذية، في بزة زرية جدًّا، وسرواله رث بدرجة جارحة للاحتشام. وتذكر كيف أنه خطر له عندئذ ألا يجمل به أن يمنح هذا المسكين عشرة روبلات ليشتري بها شيئًا حسنًا يأكله في يوم العطلة؟ ولكن سحنة هذا المخلوق لم تكن جذابة، بحيث لا توحي إلا بالتقزز، لذا تبخرت مشاعر برالنسكي الرقيقة في الهواء، لم يظفر بسلدومينوف بتلك المنحة!
ولذا كانت دهشة برالنسكي مضاعفة عندما جاءه هذا الشخص نفسه منذ أسبوع واحد لا غير ليطلب منه الإذن له بالزواج. وتذكر إيفان إيلتش أنه لم يكن لديه وقتئذ متسع من الوقت للنظر في الموضوع بدقة المستقصي، ولذا بتَّ في موضوع هذا الزواج على عجل وبلهوجة. ومع هذا يتذكر بوضوح أن الأوراق كان مثبت بها أن بسلدومينوف سيحصل على بائنة من حميه عبارة عن بيت خشبي وأربع مئة روبل نقدًا تحملها إليه عروسه. وأدهشته هذه المعلومات في حينها. بل ويتذكر أنه علَّق مازحًا على غرابة ارتباط الاسمين: بسلدومينوف ومليكوبيتاييف، وكل منهما غريب على حدة في بابه.
وإذ تذكر هذا كله، زاد استغراقًا في التفكير. ومن المعروف للكافة أن سلاسل طويلة من الأفكار تومض أحيانًا في الذهن بمثل لمح البرق، من غير أن يترجم إلى اللغة العادية، وناهيك باللغة الأدبية. ولكننا سنحاول هنا ترجمة كل هذه الأحاسيس التي خامرت ذهن بطلنا ونقدم للقارئ خلاصتها ولبابها الذي يمكن فهمه. ووجه الصعوبة أن الكثير من أحاسيسنا متى ترجم إلى اللغة العادية بدا غريبًا غير قابل للتصديق. ولذا لا تبرز هذه الأحاسيس أبدًا إلى ضوء النهار، مع أن كل واحد منا يمر بمثل هذه التجربة. وكانت أحاسيس إيفان إيلتش برالنسكي وأفكاره مفككة، ولكننا نعرف طبعًا سبب هذا.
وومض في ذهنه:

- والآن! إننا لا نصنع شيئًا سوى الكلام. لا شيء غير الكلام. ومتى حان وقت الأعمال يتبخر هذا كله. خذ مثلًا بسلدومينوف هذا. لقد عاد لتوه من المذبح في الكنيسة، مضطربًا، يحدوه الأمل، ومتلهفًا على تذوق مناعم الزواج والسعادة الزوجية... إنه يوم من أسعد أيام حياته. وهو الآن يحتفي بضيوفه، ويقيم لهم مأدبة. مأدبة فقيرة متواضعة ولكنها بهيجة مرحة كلها مودة. والآن! لو علم أنه في هذه الساعة بالذات يقف على باب بيته مصغيًا للموسيقا شخص ليس أقل من رئيسه الأعلى نفسه! آه. حقًّا! ماذا عساه يصنع إن عرف هذا؟ ماذا عساه يصنع لو أنني خطوت مباشرة إلى داخل البيت؟ إنه في البداية سيؤخذ. بل سيصعق تقريبًا. ولعلني أسبب بهذا الاقتحام أو التطفل ارتباكًا واضطرابًا في كل شيء. أجل هكذا سيكون الحال إذا ما دخل أي جنرال آخر بيته، أما أنا فلا... هذه هي القضية. أي جنرال آخر عداي أنا! حسنًا يا ستيبان نيكيفوروفتش. إنك لم تفهمني. وهاك مثلًا أقدمه لك. مثلًا ملموسًا وماثلًا للعيان. أجل! إننا لا ننفك نصيح منادين بالمسلك الإنساني، ولكننا عاجزون عن البطولة، وعن الأعمال المجيدة في واقع الأمر. وماذا أعني بالبطولة؟ أعني بها ببساطة، في ضوء العلاقات الراهنة بين جميع أعضاء المجتمع، أذهب أنا في منتصف الليل.. أذهب أنا.. أنا شخصيًّا إلى عرس مرءوس مرتبه عشرة روبلات في الشهر. لماذا؟ هذا جنون، محض خلط في الأفكار، أيام بومبي الأخيرة. فوضى! لمن يفهم هذا العمل أحد. ولن يفهمه ستيبان نيكيفوروفتش إلى آخر يوم في حياته. أليس قد قال: "لن نستطيع المكابرة على هذا النحو"؟ هذا دأبكم أيها المشلولون والرجعيون. سأريكم أني أستطيع المضي في هذا النهج إلى النهاية! وسأحول يوم بومبي الأخير إلى يوم فرح عظيم وسعادة لمرءوسي الصغير. سأحول عملًا يبدو في الظاهر جنونيًّا إلى عمل سوي أبوي سام وأخلاقي في آن واحد. كيف؟ أتقول كيف؟ هكذا. تكرم بالإصغاء! لنفرض أنني دخلت... سيدهشون. ويتوقف الرقص، ويحملقون في. ويتراجعون للوراء خطوة. حسنًا جدًّا. عندئذ ألعب لعبتي وأقوم بدوري. أتوجه مباشرة إلى بسلدومينوف وعلى فمي أطيب وأرق ابتسامة، وأقول بأبسط كلمات ممكنة: "المسألة هكذا. كنت أزور صاحب السعادة الجنرال ستيبان نيكيفوروفتش، الذي يسكن في قصره القريب من هنا. ولعلك تعرف العنوان: "وعندئذ أخبره في عبارات مازحة بما كان "تزويغ" تريفون... ثم أنتقل إلى اضطراري للسير على قدمي" "وعندئذ سمعت موسيقا، وسألت الشرطي ومنه عرفت أنك تحتفل بزواجك. فقلت في نفسي لماذا لا أرى كيف يمرح كتبتي ويفرحون ويحتفلون بزواجهم؟ لا أظنك ستطردني؟". يطردني؟ يا لها من كلمة تقال لمرءوس بل أعتقد أنه سيجن فرحًا، ويندفع ليجلس في مقعد، وهو يرتجف دهشة وعجبًا، وقد تملكه الذهول، وعجز عن استيعاب الموقف وفهمه! والآن، ماذا يمكن أن يكون أظرف وأبسط من مثلِ هذا العمل؟ ولماذا جئت؟ هذه قضية أخرى! هذا هو

الجانب الأخلاقي للمسألة. وهذا هو سر جمالها كله! آه. فيم كنت أفكر؟ آه. نعم... سيجلسونني طبعًا مع أبرز المدعوين أهمية، نقيب متقاعد أحمر الأنف، أو موظف على قدر حاله، أو أحد ذوي القربى، لكم يصف جوجول هؤلاء الناس ببراعة فائقة. وطبعًا سيقدمونني إلى العروس. وسأوجه إليها كلمة مجاملة، وأستجمع المدعوين، وأرجوهم ألا يتهيبوني، وأن يمرحوا ويواصلوا الرقص. سأمزح، وألقي النكات وأضحك، وأكون باختصار ودودًا، بشوشًا وساحرًا، وأنا دائمًا بشوش وساحر عندما أكون راضيًا عن نفسي. ولكني في الوقت الحاضر مخمور قليلًا. لست سكران بالضبط، بل مسرور بعض الشيء طبعًا... وطبعًا، بما أني سيد مهذب (جنتلمان) سوف أعاملهم كأنداد، ولا أطالبهم بمعاملة خاصة. ولكن من الناحية المعنوية، هذا شيء آخر. وسيفهمون هذا الصنيع ويقدرونه. ويستخرج صنيعي كل سماحتهم من مكامنها. حسنًا... سأمكث معهم حوالي نصف الساعة، أو قل ساعة، وسأنصرف طبعًا قبل العشاء مباشرة، وسيتدافعون نحوي ويتوسلون إليَّ، وينحنون إلى الأرض، ولكني لن أقبل سوى احتساء كأس واحدة، ثم أهنئهم وأنصرف قبل العشاء. وسأقول لهم: "عندي عمل هام"! ومتى تفوهت بكلمة العمل تغيرت سحنتهم جميعًا وبدا عليها الاحترام والجد. وهكذا أشعرهم بالتلميح اللطيف أن ثمة فارقًا كبيرًا بيني وبينهم. كل ما في العالم من فوقي، لا لأنني أحب أن أعطي هذا الانطباع، بل لأنه أمر ضروري، حتى من الناحية المعنوية هو ضروري وجوهري. أيًّا كان ما يقوله أي إنسان. سأبتسم، بل قد أضحك، وعندئذ سيشعر كل واحد بالسرور والحبور. وأقول كلمة مجاملة ودعابة أخرى للعروس.. مم! أعرف ماذا سأقول، وسأقول إنني مستعد للحضور مرة ثانية بعد تسعة أشهر لأكون أبًا بالعماد. ها، هاها! إنما طبعًا ستنجب في هذا الموعد بالضبط. إنهم يتكاثرون كالأرانب طبعًا سيضحكون جميعًا، ويحمر وجه العروس. وعندئذ أقبلها على جبينها بشعور فياض، بل وأمنحها بركتي... وغدًا سيكون صنيعي هذا معروفًا في الديوان طولًا وعرضًا. ولكني في الغد أعود كالعهد بي صرامة ودقة وحزمًا لا يلين. بعد أن عرف الجميع أي معدن هو معدني بين الرجال، ونفذت بصيرتهم إلى أعماق سريرتي وعرفوا قيمتي. وسيقولون: "إنه رئيس حازم، ولكنه في حقيقة أمره ملك كريم". وهكذا أكون قد أحرزت نصرًا، بصنيع ما كان ليخطر على بالكم، سيكون الجميع ملك يميني، فأنا أبوهم، وهم أبنائي. والآن يا صاحب السعادة ستيبان نيكيفوروفتشن أتحداك أن تستطيع الإقدام على صنيع مثل هذا! أتدرك أن بسلدومينوف هذا سوف يروي لأبنائه كيف جاء الجنرال بنفسه إلى بيته ليشاركه أفراحه، وكيف شرب في عرس أبيهم؟ وهؤلاء الأبناء سيخبرون أبناءهم، وتصبح القصة أسطورة مما تعيه تقاليد الأسرة، تصبح تراثًا لهم. لقد شرف موظف عالي المقام قدر أبيهم. بل رجل كبير من رجال الدولة (فهكذا سأكون عندما يروِي لأبنائه القصة).. وكيف لا؟ ألم أرفع من خسيسة الوضيع -

معنويًّا طبعًا - وأعيده إلى نفسه! وي! إنه يتقاضى عشرة روبلات في الشهر! وإذا صنعت هذا خمس مرات، عشر مرات، أو نحو هذا، صارت لي شعبية هائلة.. سنترك أثرها على قلوب الجميع، ولا أحد يدري ماذا سيتمخض عنه هذا الصنيع، وماذا ستتمخض عنه هذه الشعبية الجارفة.
هكذا، أو هكذا تقريبًا، قال إيفان إيلتش لنفسه في لحظات. أو ماذا عسى ألا يقوله لنفسه سيد مهذب في بعض الأحيان، ولا سيما إذا كان في حالة غير عادية وومضت هذه الاعتبارات جميعًا في ذهنه في أقل من دقيقة واحدة. وغني عن البيان أنه كان خليقًا أن يكتفي بهذه التأملات، وبتوبيخ ستيبان نيكيفوروفتش معنويًّا، ثم ينصرف إلى بيته في هدوء حيث يأوي إلى فراشه. وكان هذا أولى به ثم أولى! ولكن الحظ العاثر شاء أن تكون هذه اللحظة من لحظات التطرف والجموح.
وبرزت - تحت تأثير حالته غير العادية - سحنتا ستيبان نيكيفورفتش وسيميون إيفانوفتش أمام ناظريه، وهما يبتسمان في استهزاء، ثم ضحك سيميون إيفانوفتش ضحكته غير المستحبة. فقال إيفان إيلتش بإصرار:
- حسنًا! سنرى هل أستطيع المضي في هذا النهج والمثابرة عليه أم لا!
واندفع الدم كله إلى رأسه فصبغ خديه. ونزل عن الطوار وعبر الشارع بثبات إلى بيت مرءوسيه، المسجل بسلدومينوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (3)

وقاده نجمه المنحوس، فاجتاز البوابة المفتوحة. رفس بازدراء بعيدًا عن طريقه ذلك الجرو الصغير الذي كان قد ارتمى على عقبيه ينبحه، واتجه نحو عريشة باب البيت التي كانت بارزة إلى الفناء بروز الديدبان، وصعد ثلاث درجات متهدمة إلى المدخل الصغير. وفي الركن كانت بقايا شمعة ترسل ضوءًا خافتًا، بيد أن ذلك لم يمنع إيفان إيلتش من أن يطأ بقدمه اليمنى، وبحذائه وطزلكه ماعونًا كبيرًا به هلام باللحم كان موضوعًا في المدخل حتى يبرد. وانحنى إيفان إيلتش، وقد ثار فضوله، وإذا به يتبين طبقين كبيرين آخرين فيهما أنواع أخرى من الحلوى، ولأول وهلة أجفل عندما رأى التدمير الذي لحق بالوعاء الأول، وما تناثر من هلام اللحم. ولجزء صغير من الثانية ومضت الفكرة في رأسه: أفلا يكون من المستحسن أن (يأخذها من قصيره) وينسحب بشرف؟ بيد أنه لم يلبث أن قرر أن هذه انهزامية تتسم بالجبن. وقال لنفسه إنه ما من أحد رآه، أو يمكن أن يتجاسر على الشك فيه. ولذا مسح طزلكه وحذاءه لكي يزيل الآثار العالقة بهما، وتحسس في الظلام موضع الباب المغطى باللباد، وفتحه، فألفى نفسه في أصغر بهو رآه في حياته. وكان نصفه محتلًّا بكوم من المعاطف والعباءات والأغطية والقبعات والقلانس والأحذية الفوقية (الجتر). ويحتل نصفه الآخر عازفو الموسيقا، اثنان منهم على الكمانن وثالث للفلوت، ورابع للباص الكبير.. وأربعة طبعًا من موسيقيي الشوارع الجوالين. وكانوا جالسين إلى مائدة من خشب غير مدهون، عليها شمعة واحدة فحسب، وهم منصرفون إلى أداء الأنغام الأخيرة من رقصة رباعية. ومن الباب المفتوح على الحجرة الأخرى يشاهد الراقصون وسط سحابة من الغبار ودخان الطباق والأبخرة من كل نوع، وقد استولت عليهم بهجة مسعورة، وانبعثت منهم قهقهات عالية، وصيحات وصرخات طويلة حادة، مختلط بعضها ببعض. وكان الراقصون الرجال يدقون الأرض بأقدامهم وكأنهم سرية من الخيالة. وفوق هذا الجحيم من الأصوات ارتفع صوت قائد الرقصة الذي كان يبدو عليه منتهى الانسجام والارتياح وهو يلقي أوامره لتنظيم حركات الراقصين والراقصات.

وتخلص إيفان إيلتش من معطفه وحذائه الفوقي (الجتر) بشيء من الارتجاف المتهيب، وأمسك بقبعته في يده، ودخل الحجرة. وكف عن التفكير في أي شيء...

وفي البداية لم يفطن إليه أحد، ووقف هناك كالمأخوذ، عاجزًا عن تمييز أي شيء في هذا الزياط والحشد الهائج من ثياب النساء والشبان الذين يضعون في أفواههم السجائر المشتعلة، وهم يمرون أمامه في حركات أشبه بالدوامة... وتطاير في الهواء لفاع سماوي اللون لإحدى السيدات واحتك

بأنف إيفان إيلتش. وكان هناك طالب طب طائش، يتطاير شعره الطويل المتهدل، وهو يندفع متعقبًا تلك السيدة. فدفع بجسده إيفان إيلتش دفعة عنيفة. وصاح شخص ما صيحة غريبة جدًّا بصوت أجش:
- يا عزيزي بسلدي.
مناديًا العريس بلا شك، وهو مندفع يدق الأرض وسط الراقصين.
وبدت الأرض لإيفان إيلتش لزجة، ولا بد أنها كانت مدهونة حديثًا بطبقة من الشمع الرخيص. وكان عدد المدعوين المزدحمين المائجين في الحجرة نحو ثلاثين، وهي حجرة غير صغيرة بأي مقياس.
وبعد دقيقة انتهت الرقصة، وبدأ يتحقق على الفور ما كان إيفان إيلتش قد تخيله وحلم به عندما كان في خارج البيت. فقد سرت في الحجرة همهمة، وهمسة غريبة بين الراقصين الذين لم يستردوا أنفاسهم بعد، ولا مسحوا العرق عن وجوههم. واستدارت جميع الوجوه بسرعة نحو الضيف الجديد. وإن هي إلا لحظة حتى تراجع الجميع، جاذبين من ملابسهم من لم يفطنوا لوجوده فظلوا في أماكنهم، لينبهوهم إلى الموقف الذي لم يخطر لهم على بال، فكان هؤلاء أيضًا يلتفتون، ويتراجعون إلى الوراء على الفور مع الباقين.
وكان إيفان إيلتش لم يزل واقفًا في الباب، لم يتقدم خطوة واحدة، في حين كانت بينه وبين الضيوف مسافة أخذت تتسع وتتسع نتيجة تراجعهم الجماعي، فظهرت الأرض وقد تناثرت عليها أوراق متخلفة من قطع الحلوى التي كانت ملفوفة فيها قبل أن يأكلها المدعوون، وأعقاب السجائر...
وفجأة تقدم على استحياء في هذه المساحة الخالية، شاب يرتدي الفراك، شعره كتاني ملبد، وأنفه معقوف. تقدم متهدل الكتفين، محملقًا في الضيف غير المتوقع، تمامًا على نحو ما ينظر الكلب إلى سيده إذا ما ناداه كي يجلده على ذنب اقترفه.
وقال له إيفان إيلتش:
- كيف حالك يا بسلدونيموف... أتعرفني؟
ثم شعر على الفور بأنه قال شيئًا سخيفًا. وشعر أيضًا بأنه في هذه اللحظة ذاتها أنه ربما كان يقترف أسوأ جليطة ممكنة.
وغمغم بسلدونيموف:
- يا صا... حب السعادة!
- أها! ... لقد جئت إليك بمحض الصدفة... كما لعلك تدرك...
ولكن بسلدونيموف لم يكن في حالة تسمح له بإدراك شيء على الإطلاق. فوقف هناك، وقد جحظت عيناه في أفظع حالات الارتباك.
واستطرد إيفان وهو يحاول أن يبتسم:
- حسنًا... لا إخالك ستطردني، سواء أجبت هذا أم لا. هيا استقبل ضيفك!
وراودته فكرة مصارحته - والجميع على رءوسهم الطير - بحكاية سهرته لدى الجنرال ستيبان نيكيفوروفتش، وخيبة أمله عندما لم يجد تريفون، ولكن

بسلدونيموف جعل الموقف يزداد سوءًا لأنه لم يفق من الشلل الوقتي الذي أصابه، ومضى يحملق فيه ببلاهة تامة.
وأجفل إيفان إيلتش، شاعرًا بأنه إذا ما ترك الأمور تمضي على هذا النحو لحظة أخرى، لصار الموقف داعيًا لليأس التام، فقال بصوت خائر، وقد بدأت عضلة ترتجف على الجانب الأيمن لفمه:
أخشى... إنني... لعل من الأفضل أن أنصرف!
ولكن بسلدونيموف كان في هذه اللحظة قد استرد وعيه فغمغم، وهو ينحني انحناءة كبيرة جدًّا.
- أوه يا صاحب السعادة... إنه لشرف كبير... هلا تفضلت بالجلوس؟
وأسعفته بديهته المتيقظة، فأشار بكلتا يديه نحو الأريكة، حيث كانت المائدة الموضوعة بجوارها قد أزيحت خصيصى في اليوم السابق لإخلاء متسع من المكان للراقصين.
وبشعور غامر بالراحة جلس إيفان إيلتش على الأريكة. وأسرع شخص ما فأعاد المائدة إلى موضعها أمام الأريكة.
ونظر إيفان إيلتش فيما حوله ولاحظ أنه وحده الجالس، وأن الجميع - حتى السيدات - كانوا وقوفًا. علامة سيئة! بيد أن وقت الإشارة إلى هذا، ووقت التشجيع ورفع الروح المعنوية لم يحن بعد. والضيوف كانوا ما يزالون مستمرين في حركة التراجع، والوحيد الواقف بجواره كان بسلدونيموف الذي يكاد في وقفته أن يكون مقعيًّا، وهو عاجز عن إدراك أي شيء أو فهم أي شيء وهو لا يبتسم إطلاقًا، وهذا في حد ذاته سيئ للغاية. وفي تلك اللحظة كان بطلنا يعاني عذابًا شديدًا، وقد أخذ يرتاب في أن مغامرته هذه على طريقة هارون الرشيد يمكن أن تعد فتحًا مبينًا.
ولكن فجأة ظهر شخص صغير الحجم، تقدم فوقف بجوار بسلدونيموف وشرع في الانحناء. ولسرور إيفان إيلتش البالغ عرف فيه أكيم بتروفتش زوبيكوف، وهو رجل لم يكن من معارفه طبعًا خارج نطاق الديوان، ولكنه يعرف عنه أنه موظف كفء، وكتوم.
ونهض إيفان إيلتش على الفور، وبسط يده إلى أكيم بتروفتش. يده كلها، لا أصبعين منها فقط. وتناول أكيم اليد المبسوطة بكلتا يديه باحترام عظيم. وابتهج الجنرال التعس. لقد أنقذ الموقف.
ودفعت هذه الحركة بسلدونيموف إلى المرتبة الثانية، بل الثالثة، ففي وسع إيفان إيلتش الآن أن يتوجه بقصته إلى "الباشكاتب"، مضطرًا بحكم الظروف إلى معاملته معاملة الصاحب الذي تربطه به معرفة وثيقة، تاركًا بسلدنيموف للسانه المعقود، وارتجافه الشديد من فرط الإجلال والتهيب. وهكذا تصان المظاهر، فالحكاية لا بد أن تروى لتفسير الموقف. هذا ما ازداد إيفان شعورًا به، فهو يرى الجميع يتوقعون بنظراتهم المتسائلة أن يعرفوا شيئًا ما. بل الخدم أنفسهم متجمعين في فرجتي البابين، كي يروا ويسمعوا، وكان شيئًا

سيئًا أن الباشكاتب بكل بلادته كان لا يزال واقفًا، فقال إيفان إيلتش، مشيرًا بارتباك إلى مكان بجواره على الأريكة:
- لماذا لا...
فقال أكيم بتروفتش:
- حاشا! سأجلس هنا!
وأسرع بالجلوس على مقعد كان بسلدنيموف قد انحنى ليدفع به من تحت عجيزة الباشكاتب، ثم ظل مصرًّا على الوقوف.
وشرع إيفان إيلتش يتكلم موجهًا خطابه كله إلى الباشكاتب أكيم بتروفتش بصوت صار الآن طلقًا بالرغم من اهتزازه. وجعل يمط كلماته، مشددًا على مقطع، وموضحًا حروف الحركة، بصورة - اعترف هو نفسه - أنها متكلفة للغاية. ولكنه لم يجد لنفسه في هذا حيلة. وما أكثر ما تحقق منه في هذه اللحظة، فأورثه العذاب. ولكن لا تراجع!
- تصور أنني خرجت الآن لتوي من زيارة الجنرال ستيبان نيكيفوروفتش، ولعلك سمعت باسمه، إنه مستشار بالمجلس الخاص...
وأسرع أكيم بتروفيش ينحني بكل جسمه إلى الأمام باحترام، وكأنه يقول:
- ومن ذا لم يسمع به؟
- إنه الآن جارك هنا... في هذه المنطقة.
وكانت هذه هي العبارة الوحيدة التي وجهها إلى بسلدونيموف إنقاذًا للمظاهر، ولكي يبدو أنه على سجيته، ولكنه سرعان ما استدار مرة أخرى نحو الباشكاتب، عندما قرأ في عيني بسلدونيموف عدم الاكتراث الكامل بنبأ هذه الجيرة:
- وهذا الصديق المسن ظل كما تعلم يحلم طول عمره بشراء مسكن خاص به، وقد اشترى أخيرً قصرًا صغيرًا لا بأس به في الحقيقة. واتفق أن اليوم أيضًا عيد ميلاده الذي لم يحتفل به قط من قبل. بل كان يخفي موعده عنا، لفرط تقتيره وشحه. ها ها ها! ولكنه هذه المرة كان بالغ السرور ببيته الجديد، حتى أنه دعانا، أنا وسيميون إيفانوفتش، الجنرال.. أظنك تعرفه؟
فانحنى أكيم بتروفتش إلى الأمام مرة أخرى، وانتعش إيفان إيلتش قليلًا، وقال:
- وجلسنا ثلاثتنا، وأمامنا الشمبانيا على المائدة، نتحدث في شئون العمل. ومن موضوع إلى موضوع تطرق الحديث إلى شتى أنواع المشكلات. وشجر بيننا نقاش صغير... ها ها ها.
ورفع أكيم بتروفتش حاجبيه باحترام.
- ولكن هذا ليس بيت القصيد. انصرفت من عنده في منتصف الثانية عشرة، لأن هذا الصديق العتيق يلتزم عادات منتظمة لا يحيد عنها لأي سبب، ومنها الإيواء إلى فراشه مبكرًا... وخرجت، وإذا حوذي مركبتي الخاصة تريفون قد اختفى. واستبد بي الضيق، ورحت أسأل كل من أراه "أين ذهب تريفون

بمركبتي"؟ ويبدو أنه كان يتوقع أن أتأخر، فذهب إلى عرس قريبة أو أخت له لست أدري. الله أعلم! هنا في هذه المنطقة من بطرسبرج. وأخذ عربتي معه...
ومرة أخرى وجه نظراته إلى بسلدونيموف حفظًا للمظاهر، فارتجف بسلدونيموف تحت نظرات الجنرال، وليس هذا طبعًا ما كان الجنرال يريده منه، وومض في ذهنه: "إنه خالٍ من التعاطف".
أما أكيم بتروفتش فقال ما ينبغي أن يقال:
- يا لسوء ما صنع!
وسرت همهمة استغراب واستنكار مناسبة بين الجمع المحتشد فوجه إيفان إيلتش نظراته إليهم عندئذ، واستطرد متشجعًا:
- تصوروا موقفي... ولكني لم أكترث. ولم تكن لي حيلة إلا المشي على قدمي. قررت السير إلى جادة بولشوي، أملًا في العثور هناك على مركبة أجرة. ها ها!
ورد أكيم بتروفتش صدى ضحكة الجنرال باحترام مناسب:
هئ هئ هئ!
وسرت همهمة أخرى بين الجمع كانت هذه المرة همهمة مرح. وفي هذه اللحظة طقت زجاجة مصباح كان موضوعًا في طاقة بالجدار، فأحدثت فرقعة، وتقدم شخص ما نحوها بلهفة. وأجفل بسلدونيموف ونظر إلى المصباح قليل الحياء نظرة صارمة، بيد أن الجنرال لم يفطن لشيء فتنفس الجميع الصعداء.
- ومضيت في المشي، والليلة بديعة ساكنة الريح حقًّا. وفجأة وسط السكون سمعت موسيقا، وأصوات قوم يرقصون على أنغامها واتجهت إلى الشرطي، الذي قال لي إنه عرس بسلدونيموف، مرحى مرحى! كل الجيرة تعرف أنك أقمت احتفالًا راقصًا... هه؟ ها ها!
وفجأة اتجه بنظراته إلى بسلدونيموف مرة أخرى. ولكن أكيم بتروفتش هو الذي استجاب له هذه المرة أيضًا...
- هئ هئ! تمام!
وهمهم المدعوون مرة أخرى، ولكن أحرج ما في الأمر كله أن بسلدونيموف الذي انحنى مرة أخرى، ظل لا يفتر فمه عن ابتسامة واحدة، كأنه صنم من الخشب!
وقال إيفان إيلتش في نفسه:
- أهو معتوه؟ ليت هذا الحمار يبتسم ولو مرة واحدة!
ولكنه تحامل على نفسه واستطرد:
- لذا قلت في نفسي: لماذا لا أذهب لزيارة مرءوسي. فلا إخاله سوف يطردني. فالواجب إكرام الضيف، سواء أردت أو لم ترد! إني أعتذر عن

الإزعاج، وإذا كنت أسبب أي ارتباك ففي وسعي أن أنصرف... إنما جئت كي ألقي نظرة فحسب.
وأخذت الحياة تدب من جديد في الضيوف، وأظهر أكيم بتروفتش أنه قد بلغ به السرور من النشوة، وكأنه يقول:
- كيف يمكن أن يخطر لك يا جنرال أنك مصدر إزعاج؟
وظهرت على المدعوين أول بوادر الانفراج واسترخاء الأعصاب، وبدءوا يتحركون. ولاحظ إيفان أن جميع السيدات قد جلسن، فوجد في ذلك علامة طيبة. والأكثر جرأة من بينهن شرعن يجلبن الهواء إلى وجوههن بمناديلهن. وتكلمت سيدة ذات ثوب مخملي عتيق بصوت عالٍ مخاطبة ضابطًا من الحاضرين. وأراد أن يرد عليها بصوت أعلى، ولكن الصمت الذي ساد الحجرة والتزمه الجميع جعله يتهيب ويتلجلج.
أما الرجال، ومعظمهم من صغار الكتبة والطلبة فتبادلوا النظرات، كأنما يدعو كل منهم الآخر إلى الاسترخاء... وانتشرت أصوات السعال القصيرة، والنحنحة، ثم شرع بعضهم يتحركون بضع خطوات ولم يكن ما يسودهم الآن التهيب، بقدر ما هو الارتباك... وهم يكنون شيئًا من العداء لهذا الشخص الذي اقتحم حفلهم ليفسد عليهم مرحهم وشعر الضابط أخيرًا بوطأة جبنه، فاستنفر شجاعته وبدا يشق طريقه إلى المائدة.
ووجه إيفان إيلتش الكلام إلى بسلدونيموف.
- ذكرني باسمك بالكامل...
فأجابه بسلدونيموف وقد جحظت عيناه، وخرج صوته بنباح الأنفار في الجيش عندما يكلمون جاويش التعليم:
- برفير بتروفتش، يا صاحب السعادة.
- ألا تنوي أن تقدمني لعروسك يا بروفيري بتروفتش. خذني إليها!
وهمَّ بالقيام، ولكن بسلونيموف اندفع مسرعًا إلى حجرة الجلوس. وكانت العروس واقفة بالباب، ولكنها ما إن سمعت اسمها يذكر حتى توارت.
ولم يلبث أن عاد بها بسلدونيموف يجرها من يدها, وأفسح المذيع لهما الطريق ونهض إيفان إيلتش بكل جد ووقار، والتفت نحوها بابتسامة عريضة مهذبة، وقال وهو يحني رأسه بكل رشاقة:
- ما أسعدني بلقائك، ولا سيما في مثل هذا اليوم...
وسرت في السيدات هزة سرور، قالت السيدة ذات الثوب المخملي، بالفرنسية، بصوت حرصت على أن يصل إلى أذنيه:
- ظريف جدًّا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# (4)

وكانت العروس ندًّا لبسلدونيموف، فهي نحيفة صغيرة الحجم، تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، شاحبة اللون، صغيرة الوجه، لها أنف صغير حاد. وعيناها الصغيرتان المتحركتان بسرعة من هذا الجانب إلى ذاك الجانب ليس فيهما أي أثر للارتباك. بل على العكس كان في تعبيرهما شيء غير قليل من الحصافة والخبث. ولا بد أن بسلدونيموف قد اختارها من أجل ملاحتها. وكانت ترتدي ثوبًا من الموسلين الأبيض، مبطنًا باللون الوردي. وعنقها معروق، وجسمها كأجسام الطيور، وعظامها بارزة. ولم تستطع أن تقول أي شيء ردًّا على تحيات الجنرال، الذي واصل كلامه قائلًا:

- إنها لجميلة!

موجهًا الحديث إلى بسلدونيموف وحده، ولكن بصوت عالٍ بحيث تسمعه العروس نفسها. ولكن بسلدونيموف لم يرد بشيء على هذه العبارة أيضًا. وفي هذه المرة لم يكلف نفسه عناء الانحناء. ودار برأس إيفان إيلتش أنه تبين شيئًا من الفتور في نظرات عينيه، مع شيء من الحذر والغيظ. ومع هذا لا بد لقلبه أن يتأثر مهما كلفه ذلك. فهذا ما أتى إيفان إيلتش لأجله، على كل حال. وقال في نفسه:

- يا لهما من زوجين! ومع هذا...

والتفت إلى العروس التي جلست الآن بجواره على الأريكة، ولكنه لم يتلقَ منها جوابًا عن السؤالين أوالثلاثة الأسئلة التي وجهها إليها إلا بلا أو نعم. وحتى هاتين الكلمتين لم تنطقهما متميزتين، فقال لنفسه:

لو أنها احمرت خجلًا لاستطعت أن أشرع التنكيت. أما هكذا فالموقف مستحيل.

وكأنما أراد الباشكاتب أكيم بتروفتش أن يشترك في إغاظته فلزم الصمت. ومع أن هذا لم يكن له من سبب لديه اللهم إلا الغباء، إلا أنه مسلك لا يغتفر.

ووجه الجنرال كلامه إلى الحاضرين جميعًا قائلًا:

- سيداتي وسادتي، أتمنى ألا أكون قد أفسدت عليكم سروركم ومرحكم!

وأحس براحتي يديه تتصببان عرقًا.

ورد عليه الضابط قائلًا:

- لا. لا. لا تشغل نفسك بهذا يا صاحب السعادة, سنستأنف ما كنا فيه بعد دقيق.. كل ما هناك أننا نستريح قليلًا، ريثما تخف الحرارة التي اشتدت بسبب الرقص.

ونظرت العروس إلى الضابط مستحسنة كلامه. ولم يكن هذا الضابط متقدمًا في السن، وهو يرتدي بزة فرق الجيش. وكان بسلدونيموف لا يزال واقفًا هناك، منحنيًا إلى الأمام، وقد بدا أنفه وكأنه ازداد بروزًا، مصغيًا ومنتظرًا، كي

يلبسه المعطف. وخطرت هذه المقارنة لإيفان إيلتش نفسه، فبدأ يفقد صوابه، وشعر بالارتباك، كأن الأرض تنساب من تحته، أو كأنه انزلق إلى مكان يستحيل عليه أن يستخلص نفسه منه، ولا حيلة له إلا تحسس طريقه هابطًا في الظلام الدامس.
وفجأة أفسح الجميع الطريق لامرأة بدينة، أميل إلى القصر، تجاوزت سن الشباب، وثيابها ليست فيها محاولة التظاهر بالانتماء إلى الطبقة الرفيعة، ولكنها على كل حال خير ما لديها من ثياب. وقد ارتدت شالًا مشبوكًا بدبوس عند حلقها، وقلنسوة من الواضح أنها لم تتعودها وكانت تحمل صينية صغيرة مستديرة عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة، ولكنها لم تمس بعد، وكوبين لا أكثر ولا أقل. فكان واضحًا أن الزجاجة لضيفين فحسب.
واتجهت المرأة إلى الجنرال مباشرة، وقالت وهي تنحني:
- أسألك العفو يا صاحب السعادة. ولكن ما دمت قد تنازلت بإيلاء نجلي شرف الحضور إلى عرسه، فتكرم بعدم رفض احتساء نخب سعادة العروسين.
وكان حضورها على هذا النحو بمثابة طوق النجاة لإيفان إيلتش. ولم تكن بحال من الأحوال عجوزًا، فعمرها ما بين الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين، ولكن لها سحنة روسية طيبة، موردة، صريحة، ومستديرة، وابتسامتها تنم على مرح وطيبة قلب، وانحناءتها لا تكلف فيها، حتى إن إيفان إيلتش انشرح صدره، وانتعش، وبدأ الرجاء يدب إليه، وقال وهو ينهض واقفًا:
- إذن فأنت والدة ابنك.
وعندئذ غمغم بسلدونيموف، مادًّا رقبته الطويلة وأنفه البارز:
- الوالدة، يا صاحب السعادة.
- آه! ما أسعدني أن أتعرف بك. ما أسعدني حقًّا!
- تفضل بتناول كأس يا صاحب السعادة؟
- بكل سرور!
ووضعت الصينية، ووثب بسلدونيموف كي يصب الخمر وتناول إيفان إيلتش كأسًا وهو لم يزل واقفًا. وشرع يقول:
- إني لمسرور غاية السرور. في غاية السرور أنا لهذه المناسبة. فأود أن أعبر لك... في كلمة واحدة... بصفتي رئيسك.. وأتمنى لك يا سيدتي (ملتفتًا إلى العروس) ولك أيضًا يا صديقي بروفيري، أتمنى لكما معًا الازدهار والرفاهة وعمرًا طويلًا سعيدًا...
وتجرع محتويات الكأس، وكانت الكأس السابعة له في تلك الليلة، وكانت نظرة بسلدونيموف جادة جدًّا، إن لم نقل حزينة. وبدا الجنرال يحس له كراهة أليمة. وقال في نفسه أيضًا، وهو ينظر صوب الضابط.
- وهذا المخلوق الطويل الضامر... ما له هكذا واقفًا... لم بحق الشيطان لا يهتف "مرحى" أو شيئًا من هذا القبيل؟ كل شيء كان خليقًا عندئذ أن يكون على ما يرام.

وقالت الأم، ملتفتة إلى الباشكاتب:
- هلا شربت نخبكما أنت أيضًا يا أكيم بتروفتش. أنت رئيسه، وهو مرءوسك، فارع ابني وخذ بالك منه. أرجو منك هذا كأم. ولا تنسنا في المستقبل يا أكيم بتروفتش، فأنت رجل طيب.
وقال إيفان إيلتش في نفسه:
- ما ألطف هؤلاء النسوة الروسيات. لقد أنعشت الجميع بكلامها. وأنا طول عمري أحب عامة الشعب.
وفي هذه اللحظة جيء بصينية أخرى إلى المائدة. حملتها فتاة ترتدي ثوبًا لامعًا. وكانت الصينية هائلة الحجم، بحيث استطاعت بصعوبة أن تحملها بين يديها. وفوقها أطباق لا حصر لها فيها تفاح، وحلوى، ولوز، وعناب، وما إلى هذا. وكانت الصينية حتى هذه اللحظة موضوعة في حجرة الاستقبال لجميع المدعوين، ولا سيما السيدات. أما الآن فقد وضعت أمام الجنرال بمفرده.
وقالت الأم وهي تنحني له:
- أتمنى يا صاحب السعادة ألا تزدري مرطباتنا ونقلنا المتواضع.
فقال إيفان إيلتش، وهو ينتقي لوزة بفركها بين أصابعها بسرور واضح:
- لا أبدًا. هذا شيء عظيم.
فقد استقر رأيه على أن يكون ديمقراطيًّا حتى النهاية. وفجأة ضحكت العروس، فسألها إيفان إيلتش باسمًا، وقد أبهجه أن يجد فيها علامة من علامات الحياة.
- ماذا يا سيدتي؟
- إنه فقط إيفان كونستانتينوفتش يا سيدي، يقول أشياء مضحكة جدًّا.
وغضت بصرها.
وكان الجنرال قد لاحظ وجود شاب أشقر الشعر جميل الشكل جدًّا، يختبئ وراء ظهر الأريكة ويهمس طول الوقت للعروس. ونهض الشاب واقفًا على قدميه. وكان واضحًا أنه خجول جدًّا، وحديث السن جدًّا. وغمغم في شبه اعتذار.
- كنت أحدثها عن كتاب الأحلام يا صاحب السعادة.
فسأله إيفان إيلتش بلهجة المتساهل:
- أي كتاب أحلام؟
- هناك كتاب أحلام جديد. كتاب أدبي. قلت لها إذا حلم المرء بالسيد باناييف، فمعنى هذا أن الحالم سيسكب القهوة على قميصه.
فقال إيفان إيلتش في نفسه بضيق شديد:
- ياللسذاجة!
ومع أن الشاب احمر احمرارًا شديدًا، فإنه كان مسرورًا جدًّا لأنه قال هذا الكلام عن باناييف. وقال له صاحب السعادة بصوت مسموع:
- نعم. سمعت بهذا الكتاب.

وقال صوت آخر، قريب جدًّا من إيفان إيلتش:
- هناك ما هو أفضل من هذا. سمعت عن قاموس جديد سيظهر قريبًا.
وكان صاحب هذه الملاحظة شابًّا غير خجول أو هياب إطلاقًا، بل هو على العكس ميال إلى رفع التكليف. وكان يلبس قفازًا أو صدارًا أبيض اللون، وقبعته في يده... ولم يشارك في الرقص. وهو صحفي في إحدى المجلات الساخرة. وقد حضر بصفته ضيف شرف بدعوة من بسلدونيموف الذي تعرف به في العام الماضي عندما كانا يتصوران معًا في "أركان" تؤجرها امرأة ألمانية. ولم يكن يأنف من احتساء الفودكا، وظل ينسحب باستمرار إلى حجرة خلفية يعرف الجميع طريقهم إليها. وقد كرهه الجنرال على الفور..
وزاد الصحفي الجريء اقترابًا من الجنرال، وكان واضحًا أنه يريد أن يتخذ مجلسه بالقرب منه، فضاق الجنرال بهذا التجاوز، والتفت إلى بسلدونيموف، لمجرد الرغبة في أن يقول شيئًا ما:
- والآن قل لي يا بروفيري، لي مدة طويلة وأنا أريد أن أسألك لماذا تدعى بسلدونيموف، إن اسمك ينبغي أن يكون بسيدونيموف.
فأجابه بسلدونيموف قائلًا:
- لا أستطيع أن أعطيك معلومات محددة بهذا الشأن يا صاحب السعادة.
وقال أكيم بتروفتش موضحًا:
- عندما دخل والده الخدمة، يبدو أنهم خلطوا وأخطئوا في الأوراق، وهكذا ظل اسمه بسلدونيموف. ومثل هذه الأخطاء تحدث كثيرًا...
فقال الجنرال بلهفة:
- هو ذاك! هو ذاك بالطبع! لأن بسيدونيموف لفظ له معناه. أما بسلدونيموف فلا معنى له، كما تعلم.
فقال أكيم بتروفتش:
- كل هذا منشؤه الجهل.
- ماذا تعني بالضبط بالجهل؟
- إن الروس كثيرًا ما يغيرون الحروف بسبب جهالتهم. وكثيرًا ما ينطقون الأسماء بطريقتهم. فيقولون "عشطان" بدلًا من "عطشان".
- عشطان! ها ها ها!
وقال الضابط الطويل الضامر، الذي كان يتحرك شوقًا لقول شيء يتميز به:
- ويقولون "ممبر" أيضًا يا صاحب السعادة؟
- ماذا تعني بممبر؟
- ممبر بدلًا من منبر، يا صاحب السعادة.
- ممبر بدلًا من منبر. هائل؟ ها ها ها؟
واضطر صاحب السعادة أن يقهقه مجاملة للضابط أيضًا. وانهمك الضابط في تسوية رباط عنقه. وشرع الصحفي يقول:
- ويقولون شيئًا آخر أيضًا...

ولكن إيفان إيلتش تعمد ألا يسمع، فهو لا يسعه أن يضحك لأجل كل الناس. ونظر إليه نظرة صارمة. فهمس بسلدونيموف للصحفي:
- ما الذي أقحمك في الحديث؟
فهمس الآخر يجيبه:
- إنما أردت أن أتكلم! أليس لي أن أتكلم؟
ولكنه لزم الصمت بعدها، ثم لم يلبث أن غادر الحجرة في غضب مكتوم، متجهًا على الفور إلى الحجرة الخلفية الجذابة حيث يوجد صنفان من الفودكا، ورنجة مملحة وكافيار مضغوط وزجاجة من الشيري القوي، وضعت كلها هناك لأجل الرجال من الراقصين، فوق مائدة مغطاة بمفرش مزركش. وشرع يصب لنفسه بعض الفودكا ومراجل الغيظ تغلي في قلبه، عندما اندفع فجأة إلى داخل هذه الحجرة طالب الطب المهوش الشعر، وهو أحسن الراقصين في حفلة بسلدونيموف، ويعرف رقصة الكانكان أيضًا، وقبض علي قنينة الفودكا بشراهة. وقال وهو يصب لنفسه منها على استعجال:
- سيبدوان الآن! تعال وانظر! سأرقص رقصة منفردة، وبعد العشاء سأغامر برقصة السمك، وهي ملائمة جدًّا لحفل زفاف. وفي وسعك أن تجازف بأي شيء مع كليوباترا سيميونوفنا، هذه الحبوبة!
فقال الصحفي في اكتئاب شديد، وهو يجرع كأسه:
- إنه رجعي.
- من هو الرجعي؟
- ذلك الشخص المنتفخ الأوداج الذين وضعوا النقل والمرطبات أمامه. إنه رجعي أو كذلك!
فأجابه طالب الطب وهو يندفع خارجًا عند سماع أنغام الموسيقا:
- هيا. أسرع.
وخلا الصحفي لنفسه فصب كوبًا آخر باسم الشجاعة والاستقلال، وتجرعه، وبعد ذلك أكل وجبة خفيفة، ولم يكتسب إيفان إيلتش لنفسه في حياته كلها عدوًّا ألد من هذا الصحفي ولا أشد إصرارًا على الانتقام. ولكن وا أسفاه، لم يخطر ببال إيفان إيلتش أي شيء من هذا القبيل. وكان هناك ظرف آخر غاية في الأهمية لم يخطر بباله قط، ولكن كان له تأثير بعيد على العلاقات التالية بين سعادته والمدعوين.
وجلية الأمر أنه وإن كان قد أدلى بما كان يعده تفسيرًا مقبولًا ومفصلًا لحضوره عرس مرءوسيه، فإن بيانه هذا لم يقنع أحدًا، وما زال الضيوف يشعرون بالحرج. ثم فجأة تغير كل شيء، كأنما بسحر ساحر، فشعر كل واحد أنه على سجيته، وأنه على استعداد للمرح والضحك، والرقص، والزياط، وكأن الضيف العظيم غير المتوقع ليس في الحجرة على الإطلاق.
وكان السبب السحري في هذا الانقلاب تلك الشائعة المهموسة التي سرت بطريقة غير مِفهومة ومؤداها أن هذا الضيف ثمل بعض الشيء. ومع أن هذه

الشائعة بدت أول الأمر وكأنها "تشنيعة" وضيعة للغاية، فإنها حظيت بالتصديق شيئًا فشيئًا، إلى أن بات كل شيء واضحًا تمامًا، فأحس كل واحد من الحاضرين بالحرية التامة. و.
وفي هذه اللحظة أيضًا كان إيفان إيلتش قد استقر رأيه على التحدث إلى العروس مرة أخرى، وفي نيته أن يكسبها بدعابة مناسبة لمقتضى الحال، عندما اندفع الضابط الطويل إليها، وركع أمامها على ركبة واحدة. وعلى الفور وثبت من الأريكة وطارت معه كي تأخذ مكانها في صفوف الرقصة الرباعية. ولم يحاول الضابط أن يعتذر، وهي أيضًا لم تعر الجنرال التفاتة، بل بدت مسرورة جدًّا بالتخلص منه.
وقال إيفان إيلتش في نفسه:
- إنها على كل حال تستخدم حقها، ولم تتجاوز حدوده. ثم إن المرء لا يتوقع من "هؤلاء" أن يعرفوا أصول التهذيب!
والتفت إلى بسلدونيموف قائلًا:
- مم... لا تقيد نفسك معي بالشكليات والرسميات يا بروفيري فقد يكون لديك شأن تريد أن تهتم به، أو تدبره، فلا تتقيد بي، أرجوك.
وأردف يقول لنفسه:
- ما هذا الذي يظن أنه يصنعه، بوقوفه هكذا كالديدبان بجواري؟
وكان عنق بسلدونيموف الطويل، وحملقته الثاقبة، قد صارا غير محتملتين لدى إيفان إيلتش. وقصارى القول أن هذا الذي يحدث بأجمعه لا يشبه ألبتة ما كان قد تصوره، وإن كان لم يزل بعيدًا عن الاعتراف الكامل لنفسه بذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (5)

وبدأت الرقصة الرباعية...
وقال أكيم بتروفتش، وهو يمسك بزجاجة الشمبانيا باحترام بين يديه، ويستعد لرفعها، فوق كأس صاحب السعادة:
- اسمح لي يا صاحب السعادة.
- الحقيقة... لا أدري بالضبط... هل أنا.
ولكن أكيم بتروفتش كان قد شرع بالفعل يصب الشمبانيا في إشراق ينبئ عن أتم السعادة، وبعد أن ملأ كأس صاحب السعادة عن آخرها، صب وهو يتلوى لنفسه شيئًا منها أيضًا، خلسة، واستراقًا، فلم يملأ كأسه تمامًا، بل ترك فيها أصبعًا، ورأى ذلك أدل على الاحترام... والحق أنه كان بحركاته المتمعجة وهو جالس بجوار رئيسه الأعلى على الأريكة يحس وكأنه امرأة في المخاض.
ولم يكن موضوعًا للحديث، مع أنه من الواضح أن واجبه المباشر الآن هو تسلية صاحب السعادة، ما دام صاحب السعادة قد شرفه بمجالسته. وكانت الشمبانيا بمثابة العذر له عن عدم الكلام. ثم إن صاحب السعادة كان يجب أن يراه وهو يصب له الشمبانيا، لا لأجل الشمبانيا نفسها - التي كانت فاترة ومن صنف رديء - بل لأجل السرور المعنوي.
وقال إيفان إيلتش في نفسه:
- هذا العفريت يريد أن يشرب، ولا يجسر على ذلك إلا إذا شربت أنا أولًا، فلماذا لا أوسع عليه.. ثم إنه من السخف ألا أشرب، والزجاجة موضوعة بيننا نحن الاثنين.
تناول رشفة، وبدا له هذا أفضل من الجلوس هناك لا يصنع شيئًا. ثم شرع يتكلم، مباعدًا بين الكلمات وضاغطًا على مخارجها.
- إنني هنا. هنا. كما. تقول بمحض الصدفة.. وطبعًا قد يظن البعض. كما تقول. إنه. ليس لائقًا. تمامًا. بي. أن أوجد. في. مثل. هذا. الجمع...
ولم يقل أكيم بتروفتش شيئًا، بل لزم الصمت في فضول متهيب، واستطرد صاحب السعادة:
- ولكني آمل أن تفهم أنت لماذا أنا هنا... لم آتِ كي أشرب، كما تعلم، ها ها ها!
- ولكني آمل أن تفهم أنت لماذا أنا هنا... لم آتِ كي أشرب، كما تعلم، ها ها ها!
وكان يود أكيم بتروفتش أن يقهقه مع صاحب السعادة، ولكنه لسبب ما لم يستطع ذلك، ومرة أخرى لم يجد شيئًا مناسبًا يقوله. واستطرد إيفان إيلتش:
- أنا هنا.. كما يقولون.. كي أشجع.. كي أبين.. كما يقولون.. الأهداف.. كما يقولون.. الخلقية.

وغاظه صمت أكيم بتروفتش، وبلاهته التي لا تشارك ولا تستجيب، فصمت هو الآخر فجأة، أن لاحظ أن أكيم بتروفتش المسكين يغض بصره كالمذنب. وسارع الجنرال، بشيء من الارتباك، في تناول رشفة أخرى من كأسه. وكأنما وجد أكيم بتروفتش في هذه الحركة طوق النجاة له، فأسرع يملأ الكأس إلى حافتها من جديد...
وقال إيفان إيلتش في نفسه، وهو ينظر بصرامة إلى أكيم بتروفتش المسكين:
- أرى أنه ليست لديك موضوعات كثيرة للحديث، مواردك الذهنية محدودة جدًّا..
وشعر أكيم بنظرة الجنرال الثاقبة إلى سحنته، فقرر ألا يتفوه بكلمة أخرى، وألا يرفع عينيه. وهكذا جلسا متجاورين دقيقتين أخريين، كانتا عذابًا وجحيمًا لأكيم بتروفتش.
ولا بد هنا من كلمة أو كلمتين عن أكيم بتروفتش هذا. كان وديعًا كالحمل، ومن رجال المدرسة القديمة، نشأ على الخضوع والتزلف، ومع هذا فهو رجل فاضل، إن لم نقل إنه عالي التفكير. وهو روسي من بطرسبرج، فوالده ووالد والده ولدا وتربيا في بطرسبرج، وخدما هناك، ولم يغادرا المدينة قط. ومن على هذه الشاكلة فئة خاصة من الروس، فلا فكرة لديهم عما يحدث في روسيا، ولا يكربهم هذا الجهل بالأمور، فكل اهتماماتهم محصورة في نطاق بطرسبرج، بل أولًا وقبل كل شيء في الديوان الذي يعملون به. وكل همهم منحصر في المراهنات الصغيرة، والدكاكين الصغيرة، ورواتبهم الشهرية. ولا يدرون شيئًا عن العادات الروسية، والأغاني الروسية، فيما عدا ما تعزفه البيانولا التي تجوب الشوارع.
وهناك سمتان هامتان ثابتتان تستطيع عن طريقهما أن تميز على الفور الروسي الحقيقي من الروسي البطرسبرجي. أولاهما جميع الروس البطرسبرجيين بلا استثناء يقولون "الجازيت الأكاديمية" بدلا "من" الجازيت البطرسبرجية. وثانيتهما - وهي لا تقل عن الأولى أهمية - أن الروسي البطرسبرجي لا يقول أبدًا كلمة "إفطار" بالروسية، بل بالألمانية. وبهاتين السمتين الجوهريتين تستطيع دائمًا أن تعرفهم.
وليس معنى هذا أن أكيم بتروفتش كان مغفلًا بأي معنى من المعاني، فلو أن الجنرال سأله عن أي شيء يقع داخل نطاق معرفته لكان خليقًا أن يجيبه، وأن يواصل الحديث معه فيه، ولكن من غير اللائق أن يوجه مرءوس مثل هذه الأسئلة، مع أن أكيم يكاد يموت شوقًا إلى معرفة المزيد عن مقاصد صاحب السعادة في الوقت الراهن.
وفي هذه الأثناء ازداد استغراق إيفان إيلتش في التفكير، حتى ألفى نفسه في دوامة من أفكاره. وظل أثناء شروده يتناول رشفات من كأسه وهو لا يكاد

يفطن إلى ذلك وثابر في الوقت نفسه أكيم بتروفتش على ملء هذه الكأس، من غير أن ينطق أحدهما بكلمة...
وكان إيفان إيلتش قد شرع في مراقبة الرقص، الذي استولى فجأة على اهتمامه الخاص. وكان هناك شيء معين من تفصيلاته قد أدهشته، إذ لاحظ أن الرقص قد تناثر نظامه، بحيث ألقى كل راقص بنفسه في الحلبة على هواه، عازمًا على الاستغراق في المتعة والمرح إلى ذروة السورة الهائجة المائجة. وكانت قلة من الرجال تستحق أن توصف بالخبرة في الرقص. أما سواهم فكانوا يطفرون ويدقون الأرض بأقدامهم بعنف واضح. وأبرز الراقصين كان ذلك الضابط الطويل. وهو مغرم بأن يرقص رقصًا انفراديًّا، تبدو فيه حركاته وتثنياته جديرة بالالتفات، فكان يقف منتصبًا كالعمود، ثم ينثني فجأة انثناء جانبيًّا، وفي اللحظة الثالثة ينثني إلى الجانب المضاد، مكونًا زاوية حادة مع أرضية الحجرة. وهو دائمًا شديد الشعور بأن الجميع معجبون به.
وهناك "فارس" آخر استسلم للنوم على كتف مرافقته، لأنه كان قد شرب حتى امتلأ قبل بداية الرقص مباشرة. بحيث صار على السيدة أن تتحرك وحدها. والمسجل الشاب الذي كان يراقص السيدة ذات اللفاع الأزرق ظل يكرر نفس الحيلة في الرقصات الرباعية الخمس التي جرت تلك الأمسية، فيقف وراء السيدة ثم يمسك بطرفي لفاعها الأزرق، وأثناء تبديل الرفقاء ينتهز الفرصة ليمر اللفاع بأربع أو خمس قبلات... والسيدة تتحرك بخفة أمامه متجاهلة، أنها فطنت لشيء. وأما طالب الطب فقام برقصة فردية وهو واقف على يديه، أثارت حماسة المشاهدين وتعالت صيحات إعجابهم. وقصارى القول إن التحرير التام ساد حركات الراقصين.
وكان إيفان إيلتش الذي بلغ منه تأثير الخمر مداه على وشك الابتسام، عندما تسلل إليه شك مر فاستولى على نفسه تدريجًا. إنه طبعًا يريد منهم أن يكونوا على سجيتهم. وكانت نفسه تصبو تتلهف على هذا الجو من البحبوحة ورفع التكليف عندما تراجعوا عنه. أما الآن فهذه البحبوحة نفسها بدأت تتجاوز جميع الحدود. فها هي مثلًا سيدة ترتدي ثوبًا باليًا من القطيفة الزرقاء، اشترته من تاجر ثياب مستعملة "جدًّا" بلا شك، وقد شمرت ثوبها في دورة الرقص السادسة، بحيث بدت وكأنها ترتدي سروالًا. وهي بعينها كليوباترا سيميونوفنا التي يمكن لأي شخص أن يغامر معها بأي شيء، كما قال مراقصها طالب الطب.
ولا يمكن أن يقال عن طالب الطب إلا أنه مهرج حقيقي. ولكن ما معنى هذا كله؟ إنهم في البداية يتراجعون، ثم فجأة ينقلبون متحررين. وجاء هذا التغير مفاجئًا. فشعر إيفان إيلتش بنذير توجس منه. لأنهم بدوا كما لو كانوا قد نسوا وجوده تمامًا. وهو طبعًا كان أول من يضحك، بل وأقدم ذات مرة على التصفيق. وشاركه أكيم بتروفتش الضحك قرير النفس، ولم يخطر بباله لحظة أن صاحب السعادة بدأ بالفعل يكمن في أعماق قلبه السخط والغيظ.

ووجد إيفان إيلتش نفسه مضطرًّا أن يقول لطالب الطب الذي مر بقربه عند نهاية الرقصة.
- أنت ترقص ببراعة عظيمة أيها الشاب.
فالتفت إليه الشاب التفاتة سريعة، حادة، وتقلصت سحنته، ثم قرب وجهه من وجه صاحب السعادة بصورة وقحة، ثم أطلق من فمه، وبأعلى صوته صياحًا شديد الشبه بصياح الديك! وكانت هذه ثالثة الأثافي!
ونهض إيفان إيلتش عن المائدة متجهمًا. ومع هذا تجاوب المكان بالضحك، لأن صياح الديك كان طبيعيًّا جدًّا، وغير متوقع. وظل إيفان إيلتش واقفًا في موضعه حائرًا ماذا يصنع، إلى أن جاء إليه بسلدونيموف وانحنى له يدعوه إلى مائدة العشاء، وجاءت من ورائه أمه التي قالت وهي تنحني:
- سيدي الطيب. يا صاحب السعادة... امنحنا الشرف، ولا تحتقر طعامنا المتواضع.
- أنا... أنا في الحقيقة لا أدري.. ما لهذا أتيت.. وكنت أفكر فعلًا في الانصراف..
والواقع أن قلنسوته كانت في يده في هذه اللحظة، وقد آلى على نفسه أن ينصرف مهما حدث، وأنه ما من شيء يمكن أن يحمله على البقاء... ومع هذا بقي!
وبعد دقيقة كان يرأس الموكب المتوجه إلى المائدة. وتقدمه بسلدونيموف ووالديه يفسحان له الطريق. وأجلساه في مكان الشرف، وهذه المرة أيضًا ظهرت بجوار طبقه زجاجة الشمبانيا مقفلة. وعلى المائدة طعام خفيف من الرنجة والفودكا. ومد يده، وصب لنفسه كوبًا كبيرًا من الفودكا، وشربه جرعة واحدة.
ولم يكن متعودًا شرب الفودكا فشعر كأنه يتدحرج من قمة تل إلى خفيض السطح، وسرعته تزداد مع الوقت. وكان يعلم أنه لا بد أن يتوقف عن التدحرج، وأن يتشبث بشيء. ولكنه لم يجد شيئًا يتشبث به.
وغدا موقفه أشد شذوذًا. والله وحده يعلم بما جرى في مدى ساعة واحدة، منذ دخل، هذا البيت بالصدفة. فعندما دخل كان مفتوح الذراعين ليعانق الجنس البشري كله، وجميع مرءوسيه، وفي مدى ساعة واحدة ها هو وقد اضطر إلى الاعتراف - والأسى ملء فؤاده - بأنه يمقت بسلدونيموف ويلعنه هو وزوجته وحفل عرسه. وليس هذا كل شيء، بل إنه ليتبين من وجه بسلدونيموف، ومن عينيه وحدهما أنه يبادله المقت. فنظرته تقول:
- اذهب إلى الجحيم، عليك اللعنة! فلا تريد أن تحل عن رقبتي؟
فإيفان إيلتش كان قد قرأ هذا كله منذ وقت طويل في نظرة بسلدونيموف.
بل إنه الآن، وهو جالس إلى المائدة كان أهون عليه أن تقطع يده من أن يعترف - حتى لنفسه - أن الأمور وصلت إلى هذا الحد. فساعة هذا الاعتراف لم تحن بعد، ولم يزل هناك شيء من التوازن المعنوي. ولكن قلبه... قلبه

يتوق إلى الحرية، وإلى الهواء، والراحة. فهأنت ترى أن إيفان إيلتش كان مفرطًا في رقة قلبه جدًّا...
كان يعلم تمام العلم أنه كان ينبغي أن ينصرف منذ وقت طويل. وهو لم يكن ينبغي أن ينصرف فحسب، بل أن ينجو بحياته. وكان يعلم أن الأمور لم تتمخض عما كان ينبغي أن تتمخض عنه، حين فكر فيها وهو في الشارع. وراح يسأل نفسه وهو يتناول لقمة من الرنجة:
- لماذا أتيت؟ ألآكل وأشرب؟
واتجهت أفكاره عندئذ اتجاهًا ساخرًا، على حساب مبادرته. وشرع يتساءل عما جاء به إلى هذا بعد كل شيء.
- ولكن كيف كان يتسنى لي أن أنصرف؟ لو انصرفت قبل إتمام ما جئت لأجله، لكان ذلك سخفًا. فماذا عساهم يقولون عندئذ؟ سيقولون إني كنت أرتاد أماكن غير لائقة. هكذا سأبدو ما لم أنجز ما جئت له، فماذا عسى - مثلًا - أن يقوله غدًا ستيبان نيكيفوروفتش وسيميون إيفانوفتش، وكل أولئك الناس في الديوان، من أمثال شمبل وشوبين (لأن الأخبار طبعًا ستصل إليهم)؟ كلا! بل لا بد أن أنصرف بطريقة يفهم منها كل واحد لماذا جئت إلى هنا. يجب أن أجعل هدفي الأخلاقي واضحًا جليًّا للجميع.
ولكن الفرصة المواتية لذلك لم تسنح. واسترسل يقول في نفسه:
- بل إنهم الآن لا يحترمونني. ما الذي يضحكهم؟ إنهم لا يشعرون بأي تحرج. وتبدو عليهم بلادة الحسب لا بد إذن أن أبقى مهما كان الثمن؟ لقد فرغوا من رقصهم، وهم الآن مجتمعون حول المائدة، وهذه فرصتي كي أتكلم عن المشكلات، وعن الإصلاحات وعن عظمة روسيا. لم يزل في وسعي أن أكسبهم! ولعل شيئًا لم يضع حتى الآن. ولعل الحال هكذا دائما في الحياة الواقعية. فكيف يتسنى لي أن أفتتح الحديث، كي أكسبهم؟ أي أسلوب أنتهج؟ إني لحائر، حائر جدًّا... فماذا يريدون؟ وماذا يطلبون؟ إني أراهم هناك يضحكون. فهل يضحكون مني؟ يا إلهي! ولكن ماذا أريد أنا؟ لماذا لا أنصرف؟ ما الذي أحاول تحقيقه؟
ومع هذه الخواطر بدأ شيء أشبه بالخجل، بدأ خجل عميق لا يطاق يأكل قلبه ويصل إلى أغوار أبعد في كل لحظة.
ولكن كل شيء أخذ مجراه الطبيعي، وقد أخذت الأمور بعضها برقاب بعض.
فبعد دقيقتين بالضبط من جلوسه إلى المائدة استولت فكرة رهيبة على كيانه كله، فقد أدرك فجأة أنه سكران سكرًا بينًا، ولم يعد كما كان من قبل. وسبب هذا ذلك الكوب من الفودكا الذي تجرعه بعد الشمبانيا، فأحدث تأثيره الفوري. وشعر في أعماق كيانه أنه يتهاوى إلى حضيض الوهن. واستنجد للحظة واحدة بشجاعة نادرة، ولكن ضميره لم يدع له راحة، وظل يصيح به.
- هذا أمر سيئ جدًّا. مخزٍ للغاية!

وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن للخواطر المختلطة المترنحة سكرًا أن تظل مستقرة على موضوع واحد. فسرعان ما تكون بداخله جانبان، في أحدهما التحدي والرغبة في الانتصار، والتغلب على العقبات واليقين الحازم بأنه واصل لا محالة إلى هدفه. وفي الجانب الآخر ألم شديد في قلبه وشعور قوي بأن شيئًا ما يستنزف دماء فؤاده، يهيب به:
وحتى تلك اللحظة كان واعيًا وعيًا غامضًا بأن له من بين الحاضرين أعداء، وقال لنفسه في شك قلق:
- لعل السبب في هذا أنني كنت سكران عندما جئت إلى هنا.
ولكنه اكتشف الآن من بعض العلامات التي لا محل للشك فيها شيئًا أفزعه وروعه حقًّا، وهو أن له أعداء حقيقيين على المائدة...
وسأل نفسه:
- ولكن ماذا عساي صنعت كي أستثير عداءهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (6)

وحول هذه المائدة جلس الثلاثون مدعوًّا كلهم، عدد كبير منهم كان السكر قد أخذ منهم مأخذه بالفعل. أما الآخرون فكان يبدو عليهم الاستقلال الخبيث غير المبالي، فهم يصيحون ويتكلمون في وقت واحد، مقترحين أنخابًا غير لائقة، ويرمون السيدات بكرات من الخبز. فيعدن قذف الرجال بها. وحدث أن وقع رجل تافه يرتدي فراك كثيرة البقع عن كرسيه عندما أراد الجلوس عليه، وظل راقدًا على الأرض طيلة وقت العشاء. وصمم شخص آخر على الوقوف فوق المائدة لشرب نخب ولم يخفف من غلوائه إلا تعلق الضابط بذيل سترته المشقوق.

والعشاء نفسه كان خليطًا من أطباق غير متجانسة، مع أن طباخة محترفة، كانت سابقًا عبدة عند أحد الجنرالات قد استأجرت لهذا الغرض. فكان هناك لسان وبطاطس، وهلام اللحم، وضلع، وبازلاء خضراء، وأخيرًا إوزة. وتضمنت المشروبات أنواعًا رخيصة من البيرة والفودكا والشيري. وكانت هناك زجاجة شمبانيا إلى جوار طبق الجنرال. وقد اضطر أن يملأ منها أيضًا كأس أكيم بتروفتش، الذي لم يجازف بمد نشاطه إلى مائدة العشاء.

وكانت المائدة نفسها مكونة من تلاصق بضع موائد صغيرة، غطيت بمفارش متباينة، بعضها من قماش مطبوع ومنقوش. وجلس الرجال والسيدات على التناوب. ولم تجلس والدة بسلدونيموف إلى المائدة، بل راحت تتحرك حولها بخفة، مصدرة الأوامر. وظهرت الآن أيضًا أنثى كئيبة لم يرها أحد من قبل، مرتدية ثوبًا من الحرير الضارب للحمرة، وقد ربطت خدها المتورم بمنديل، وعلى رأسها قلنسوة مفرطة الطول. واتضح أنها أم العروس، التي رضيت آخر الأمر أن تبرز من الحجرة الخلفية لتشترك في العشاء. أما قبل هذا فظلت متوارية بسبب عداوتها الشديدة لوالدة بسلدونيموف. ونرجئ هذا الموضوع إلى أن يحين أوانه. وألقت نظرة عابسة - إن لم نقل متهكمة - على الجنرال، ولم تظهر أي رغبة في أن يقدموها إليه.

ورأى إيفان إيلتش في ظهور هذه المرأة علامة داعية للارتياب الشديد. ولكن كانت هناك عدة شخصيات أخرى تثير الريبة، أثارت لديه القلق والتوجس. بل بدا له وكأن هذه الشخصيات تحيك له مؤامرة فيما بينها. ومع امتداد العشاء ازداد قناعة بهذا الاعتقاد.

وكان أشد الجميع إثارة لريبته سيد ملتحٍ، يبدو أنه فنان غريب الأطوار، لأنه ظل ينقل بصره من إيفان إيلتش إلى جاره، ثم يهمس في أذن هذا الأخير. وهناك ضيف آخر، طالب، بدا مريبًا جدًّا مع أنه كان في أشد حالات السكر. وبدت على طالب الطب أمارات غير مطمئنة أيضًا. بل والضابط نفسه لم يكن يطمئن إليه. أما الصحفي فكان يفيض بروح العداء والكراهية وهو باسط

ذراعيه ورجليه في جلسته بكل وقاحة، وكان يضحك بلا مبالاة، ولم يكن أحد من الضيوف يأبه لهذا الصحفي الذي لم ينشر أكثر من أربعة أبيات في المجلة، وزعم بعدها أنه ليبرالي، بل والأصح أن الجميع كانوا ينفرون منه. ولكن عندما وقعت كرة خبز فجأة عن كثب من إيفان إيلتش أقسم في سره أن الجاني لا يمكن أن يكون سواه.
وبطبيعة الحال أثرت هذه الأمور كلها عليه أسوأ تأثير.
ولاحظ إيفان إيلتش على نفسه شيئًا آخر أحزنه جدًّا وآلمه، فقد بدا ينطق الألفاظ بصورة مبهمة وبصعوبة. ومع أنه كان لديه الشيء الكثير الذي يريد قوله، إلا أن لسانه لم يطاوعه. وبعد قليل استسلم للشرور. وأسوأ من هذا أنه صار يضحك لغير سبب ظاهر، في وقت لم يكن فيه ما يدعو للضحك مطلقًا.
وسرعان ما مرت هذه المرحلة بعد كأس أخرى من الشمبانيا كان إيفان إيلتش قد صبها لنفسه وهو يعتزم ألا يشربها، ثم شربها فجأة، كأنما تم ذلك بالصدفة. وبعدها أحس رغبة في البكاء. وكان يشعر أنه هوي إلى أبعد درجات التميع العاطفي. ومرة أخرى صار مدفوعًا بالحب. حب الجميع، حتى بسلدونيموف، بل حتى الصحفي. وفجأة أراد أن يعانقهم جميعًا، ويفتح لهم قلبه، ويحكي لهم كل شيء، وأي رجل لطيف عطوف هو. وكيف أنه موهوب وإلى أي مدى يمكن أن يكون نافعًا لبلاده. وكيف يستطيع أن يسلي الجنس اللطيف. وقبل هذا وذاك كم هو تقدمي وحسن النية تجاه الناس، وحتى أقلهم شأنًا، وتمنى أن يكاشفهم جميعًا بما دفعه للحضور بغير دعوة إلى بيت بسلدونيموف، كي يشرب هناك زجاجتي شمبانيا، ويبهجه بوجوده.
- الحقيقة. الحقيقة المقدسة. والصراحة فوق كل شيء! سأصل إلى قلوبهم عن طريق صراحتي. وسيصدقونني. أنا متأكد أنهم سيصدقونني. إنهم الآن يرمقونني بنظرات العداء، ولكن عندما أخبرهم بكل شيء سأغلبهم بلا مراء ولن يكون لهم قبل بمقاومتي. وسيملئون أقداحهم ويشربون نخب صحتي وهم يطلقون صيحات الحماسة، وأنا واثق بأن الضابط سيحطم عندئذ قدحه على مهمازه. بل قد يهتفون "مرحى"! وحتى إن أرادوا أن يرفعوني ويتقاذفوني على طريقة الهوساد في الهواء لن أعترض، فسيكون هذا شيئًا لطيفًا جدًّا في الواقع. وسأقبل العروس على جبينها، فهي مخلوقة صغيرة لطيفة. وأكيم بتروفتش رجل طيب جدًّا أيضًا. وبسلدونيموف سيتحسن طبعًا بمرور الوقت. إن صقل المجتمع الراقي ينقصه... ولكن الجيل الجديد كله يفتقر إلى الرهافة الروحية... ومع هذا... سأتحدث إليهم عن رسالة روسيا الحالية بين الدول الأوروبية الأخرى. وسأمس مسألة الفلاحين مسًّا رفيقًا. نعم... و.. و... سيحبونني جميعًا، وبعدها سأنصرف انصرافًا مجيدًا...
وبطبيعة الحال كانت هذه الأحلام لطيفة جدًّا، ولكن ما اكتشفه فجأة في نفسه، وسط كل هذه الآمال الوردية من ميل غير متوقع للبصق، لم يكن شيئًا

لطيفًا بالمرة. فقد بدأ اللعاب يتناثر من فمه ضد إرادته. وقد فطن لهذا أول مرة عندما لاحظ أنه رشَّ خد أكيم بتروفتش بنثار بصاقه، وأن أكيم بتروفتش - احترامًا له - أحجم عن مسح البصاق على الفور. فمد إيفان إيلتش يده بمنشفته ومسح له خده وجففه جيدًا بنفسه. ولكن في اللحظة التالية بدا له هذا التصرف سخيفًا مضحكًا، ومتجاوزًا جدًّا حدود المعقول المتعارف عليه، فوجم صامتًا، مستغرقًا في الدهشة من نفسه.
وكان أكيم بتروفتش قد شرب الشيء الكثير، وصار مبلبلًا شديد الارتباك. وتحقق الآن إيفان إيلتش أنه على مدى ربع الساعة الأخير كان يتحدث إلى أكيم بتروفتش عن أشد الموضوعات أهمية، وأن أكيم بتروفتش كان يصغي إليه وهو لا يشعر بالحرج فحسب، بل وهو خائف أيضًا من شيء ما. وكذلك كان بسلدونيموف، الذي تفصله عنه سيدة، يمد عنقه الطويل نحوه طول الوقت، وقد مال رأسه إلى أحد جانبيه، وعلى سحنته تعبير غير مستحب إطلاقًا. كان يبدو في الواقع أنه يرقبه وألقى إيفان إيلتش نظرة على مجموع الضيوف فلاحظ أن الكثيرين منهم ينظرون إليه مباشرة وهم يضحكون. وأغرب من هذا كله أن ذلك لم يشعره بأدنى حرج، بل على العكس، إذا شرب جرعة أخرى من قدحه، ثم ناشد الجميع أن يصغوا له وشرع يقول بأعلى صوته:
- لقد كنت أقول الآن لأكيم بتروفتش أيها السادة إن روسيا... أجل... روسيا.. أنتم باختصار تدركون ماذا أريد أن أقول... فاعتقادي الجازم العميق أن روسيا تتجه الآن إلى النزعة الإنسانية..
وانطلق صوت من الطرف الآخر للمائدة يصيح:
- الإنسا... ني - ... - ة!
- هو هو هو!
- بو بو بو!
واشتعلت حماسة إيفان إيلتش واشتد انفعاله. ونهض بسلدونيموف واقفًا وأجال بصره كأنه يقول للجميع: من هذا الذي صاح هكذا؟ وهز أكيم بتروفتش رأسه خلسة منبهًا المدعوين إلى التزام الاحتشام. ولم تفت هذه الحركات إيفان إيلتش، ولكنه تألم في صمت، وواصل كلامه بإصرار:
- الإنسانية! ومنذ وقت قريب.. أجل منذ وقت قريب جدًّا قلت للجنرال ستيبان نيكيفورفت.. نعم.. إن التجديد.. كما يقولون...
وصاح صوت عالٍ من الطرف الأقصى للمائدة:
- يا صاحب السعادة!
فأجابه إيفان إيلتش متوقفًا عن الكلام ومحاولًا أن يتبين من الذي ناداه:
- في خدمتك!
- لا شيء إطلاقًا يا صاحب السعادة.. لقد جرفتني الحماسة فقط. استمر!
وأجفل إيفان إيلتش، ولكنه استطرد:

- إن تحديد هذه الأمور ذاتها، كما يقولون...
- يا صاحب السعادة!
- أفندم!
- طاب يومك!
وكان هذا كثيرًا جدًّا على إيفان إيلتش، فتوقف في وسط الجملة، والتفت نحو هذا المشاغب، وكان طالبًا حديث السن جدًّا، في أشد حالات السكر، وواضح أنه شخص مريب جدًّا. وقد لبث يصيح منذ مدة، وكسر أيضًا قدحًا وطبقين، مؤكدً أن هذا هو التصرف المستحب في حفل عرس. وعندما كان إيفان إيلتش متجهًا ببصره إليه، انبرى الضابط يوبخ ذلك المشاغب:
- لماذا تصيح؟ ينبغي أن تطرد خارجًا!
فصاح الطالب السكران، وهو يتقلب ويسترخي إلى الوراء في مقعده:
- لم أكن أقصدك يا صاحب السعادة. لم أكن أقصدك يا صاحب السعادة. استمر! استمر! إني مصغٍ إليك، وأنا مسرور جدًّا جدًّا منك! جدير أنت جدًّا بالثناء! جدير بالثناء جدًّا!
وهمس بسلدونيموف:
- غلام ثمل!
- واضح لي أنه ثمل، ولكن...
وشرع الضابط يقول:
- كنت في الواقع أحكي له قصة مضحكة يا صاحب السعادة، عن مساعد في سريتنا كلم ضابطه. هكذا. وهو الآن يحاول محاكاته. فكلما قال الضابط شيئًا، صاح المساعد: "جدير بالثناء! جدير بالثناء جدًّا"! وقد فصل المساعد بسبب هذا من الخدمة منذ عشر سنين.
- أي مساعد هذا؟
- كان في سريتنا يا صاحب السعادة. جن، وتركز جنونه في كلمة "جديرة بالثناء"! وفي البداية حاولوا معه بالوسائل المترفقة، ثم وضعوه تحت التحفظ.. ونصحه الضابط ووعظه كوالد، وهو لا يفتأ يقول: "جدير بالثناء! جدير بالثناء"! والغريب أنه كان مقاتلًا شجاعًا، وطوله أكثر من ستة أقدام. وأرادوا أن يقدموه للمحاكمة العسكرية، ثم تبينوا أنه مجنون.
- واضح أنه تلميذ لا أكثر، وفي وسع المرء أن يتسامح مع هذه الشيطنة الصبيانية، وأنا من جهتي مستعد للصفح.
- واختبروه طبيًّا يا صاحب السعادة.
- ماذا؟ هل شر... هو... ه؟
- بحق السماء. لا! بل كان على قيد الحياة.
وانفجرت عاصفة فجائية من الضحك بين الضيوف، الذين كانوا قد تصرفوا حتى الآن في حدود اللياقة والاحتشام، فاستشاط إيفان إيلتش غضبًا، وصاح فيهم، وهو لا يكاد يتعثر في أول الكلام:

- أيها السادة! أيها السادة! أنا في وضع يسمح لي أن أدرك أنهم لا يشرحون شخصًا على قيد الحياة.. بل خطر لي أنه مات بسبب جنونه.. هذا ما أعنيه.. وأردت أن أقول.. إنكم لا تحبونني، ومع هذا.. أنا أحبكم جميعًا.. نعم.. حتى بور.. بورفيري أحبه! وأنا أحط من قدر نفسي حين أقول هذا..
وعندئذ انهالت من شفتي إيفان إيلتش كمية لعاب كبيرة، ولطخت مفرش المائدة في أبرز مكان منه، وأسرع بسلدونيموف يمسح اللطخة بمنشفته.
فكان هذا العمل الذي أجهز على إيفان إيلتش، فصاح في بأس:
- أيها السادة! هذا كثير جدًّا!
وغامر بسلدونيموف مرة أخرى بالكلام:
- عندما يكون الشخص سكران، يا صاحب السعادة...
- بورفيري! إني أراك.. أراكم جميعًا.. نعم.. إني أقول إني آمل.. نعم.. إني أناشد كل واحد منكم أن يقول.. إلى أي حد حططت من قدري في أعينكم؟
وصار إيفان إيلتش على وشك البكاء...
- أوه. يا صاحب السعادة!
- بورفيري.. إني أسألك.. قل لي.. أتظن.. أنني حين.. أتيت إلى.. عرسك.. لم يكن لي هدف؟ إنما أردت أن أرفع معنوياتك.. أردت أن أحرك مشاعركم جميعًا. إني أسألك هل حططت من قدر نفسي كثيرًا في عينيك؟
وساد صمت رهيب. تصور هذا الصمت الرهيب ردًّا على سؤال دقيق محرج كهذا. وومض خاطر في ذهن إيفان إيلتش:
- لماذا؟ لماذا لا يهتفون بشيء في هذه اللحظة؟
ولكن الضيوف اكتفوا بتبادل النظرات. وبدا أكيم بتروفتش أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. أما بسلدونيموف الذي أصمه الرعب فوقف يكرر لنفسه عين ذلك السؤال الذي كان يقلقه منذ وقت طويل:
- ماذا سيكون من أمري غدًا؟
وفجأة انبرى الصحفي الذي كان قد لزم الصمت الواجم وهو في أشد حالات السكر، فاتجه صوب إيفان إيلتش، وتولى الإجابة عن سؤاله نيابة عن الحاضرين جميعًا:
- أجل! أجل! لقد حططت من قدرك.. أجل أنت رجعي.. ر.. ج - ..عي!
فصاح إيفان إيلتش في ثورة غضبه، واثبًا في مكانه:
- إنك تنسى نفسك أيها الشاب!
- بل أنت! ثم أنا لست شابًّا... أنت جئت إلى هنا كي "تستعرض" وتبحث عن الشعبية.
فصاح إيفان إيلتش:
- ما معنى هذا يا بسلدونيموف.
ولكن بسلدونيموف، بعد أن وثب واقفًا استولى عليه الرعب فشل حركته، ولم يدر ماذا يصنع. وبدا كأن الضيوف جميعًا تجمدوا في مواضعهم. وصاح

الفنان وَالطالب:
- مرحى مرحى! برافو!
وواصل الصحفي صياحه في هياج لا سبيل إلى كبحه:
- نعم. أنت جئت لتتباهى بنزعتك الإنسانية! فقطعت على الجميع مرحهم وابتهاجهم. وشربت الشمبانيا غير مقدر أنها أغلى من أن يطيق ثمنها موظف يتقاضى عشرة روبلات شهريًّا. وإخالك أيضًا من أولئك الرؤساء الذين يستطيبون زوجات مرءوسيهم! بل وأكثرهم من هذا...
وصاح إيفان إيلتش مادًّا ذراعيه نحو بسلدونيموف:
- بسلدونيموف! بسلدونيموف!
فكل كلمة تفوه بها الصحفي كانت أشبه بسكين في قلبه.
وصاح بسلدونيموف بحزم:
- دقيقة واحدة يا صاحب السعادة. أرجوك لا تتكدر!
ووثب على الصحفي، وأمسك بياقة سترته، وجرَّه بعيدًا عن المائدة. ولم يكن أحد يتوقع مثل هذه القوة البدنية من بسلدونيموف النحيل، ولكن الصحفي كان شديد السكر، وبسلدونيموف كان مفيقًا تمامًا، وقرص ضيفه في ظهره عدة مرات، ثم دفعه إلى خارج الحجرة.
صرخ الصحفي:
- أوغاد.. كل واحد فيكم وغد! سأسلقكم بلسان حاد في الصحيفة غدًا!
ووثب الجميع واقفين على أقدامهم. وأحاط بسلجونيموف وأمه ونفر من الضيوف بالجنرال وهم يصيحون:
- يا صاحب السعادة! لا تلقِ إليه بالًا يا صاحب السعادة.
وصاح الجنرال:
- لا! لا! لقد أهنت! أنا أتيت إلى هنا لأقول... لأبارك... وهذا ما جنيته جزاء صنيعي.
وارتمى في مقعده كمن فقد الوعي، وأسقط يديه على المائدة، ثم وضع رأسه عليهما، فسقطت في طبق للصلصة البيضاء. وعبثًا نحاول تصوير فزع الحاضرين. وبعد دقيقة نهض، وفي نيته الانصراف بلا شك، ولكنه ترنح، وتعثرت قدمه في الكرسي، فوقع بطوله كله على الأرض، وعلا شخيره!
وهذا أمر يحدث كثيرًا لمن لا يشربون الخمر عندما يشربون منها أكثر مما ينبغي. فيحتفظون حتى آخر لحظة بوعيهم، ثم فجأة يسقطون كالشجرة المقطوعة. وظل إيفان إيلتش راقدًا على الأرض غائبًا عن الوجود.
ووقف بسلدونيموف يشد شعر رأسه، وهو كالمصعوق. وأسرع المدعوون بالتفرق على عجل، وهم يناقشون ما حدث. وقد بلغت الساعة الآن حوالي الثالثة صباحًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# (7)

والحقيقة أن ظروف بسلدونيموف كانت أسوأ بكثير مما كان يظن، حتى في ضوء موقفه الحالي السيئ. ونقطع الآن سياق حكايتنا، وما زال إيفان إيلتش راقدًا على الأرض، وبسلدونيموف واقفًا فوقه يشد شعر رأسه يأسًا، كي نقول بضع كلمات توضيحية فيما يتعلق ببورفيري بتروفتش بسلدومينوف.

فقبل زواجه هذا بشهر كان على وشك التلاشي نهائيًّا، وهو قادم من ولاية كان أبوه يشغل فيها منصبًا ما، ومات أثناء محاكمته لزلة هينة كان قد ارتكبها. وقبل زواجه بخمسة أشهر كان قد انقضى عليه عام كامل وهو يتضور جوعًا في بطرسبرج، ثم حصل على وظيفة راتبها عشرة روبلات في الشهر، فشعر أنه بعث روحًا وجسدًا، إلا أنه لم يلبث أن انحدر ثانية بحكم الظروف.. وكان قد تبقى من آل بسلدونيموف شخصان فقط على وجه الأرض، هو ووالدته التي تركت الولاية الإقليمية عقب وفاة زوجها، وتقاسم الاثنان تعاسة البرد القارس، وكان طعامهما في حكم العدم. وغبرت عليهما أيام كان بسلدونيموف يذهب فيها إلى النبع المجاني، ومعه كوماكي يبل ظمأه. ولما ظفر أخيرًا بالعمل استأجر مع أمه ركنًا في حجرة، واحترفت الأم غسل الثياب، وادخر هو ما استطاعته على مدى أربعة أشهر ليشتري لنفسه حذاء ومعطفًا. وما كان أقسى العذاب الذي عاناه في المكتب! فقد كان رئيسه يوجه إليه سؤالًا محددًا: متى كان آخر عهده بالحمَّام؟ وسرت بين الموظفين شائعة مؤداها أن البق أقام لنفسه أعشاشًا تحت ياقة معطفه. بيد أن بسلدونيموف كان ذا إرادة قوية، وكان يبدو شديد الوداعة والهدوء. وكان تعليمه هزيلًا جدًّا، وقلما سمعه أحد يبدي رأيًا في شيء. ولست أدري هل يفكر، ويرسم الخطط والأنظمة والمطامح من أي نوع. ولكن لديه بدلًا من هذا كله إصرار غريزي لا يلين، ولا شعوري، على انتشال نفسه من وضعه، ففيه عناد كعناد النمل ودأبه. ففي وسعك أن تدمر عش النمل، فتشرع على الفور في إعادته بنائه. وإن دمرته مرة أخرى. عادت لبنائه من جديد، وهلم جرًّا إلى ما لا نهاية. فروض من هذا النوع الدءوب المدبر. وتستطيع نظرة واحدة أن تدرك أنه سيشق طريقه ويبني عشه، بل وقد يدخر شيئًا إلى جانب هذا أيضًا. وما من أحد في العالم كله يحبه ما عدا أمه، فهو حبة عينها.

وهي امرأة حازمة لا تكل ولا تمل من بذل الجهد. ولكنها مع هذا كله امرأة طيبة القلب في أقصى حد. وكان من الممكن أن يظلا مقيمين في "ركنهما" خمس أو ست سنوات أخرى في انتظار حدوث شيء، لولا أنهما التقيا بالموظف المتقاعد مليكوبيتاييف، الكاتب السابق في الخزانة، الذي خدم ذات يوم في ولايتهما بالريف. واستقر أخيرًا في بطرسبرج مع أسرته. وكان يعرف بسلدونيموف الذي كان والده قد أسدى إليه ذات يوم معروفًا. ولديه مبلغ من

المال، ليس كبيرًا بالتأكيد. ولا أحد يدري على وجه اليقين كم هذا الميلغ. لا زوجته تدري، ولا ابنته الكبرى. ولا أقاربه. وكانت له ابنتان. ولما كان رجلًا غريب الأطوار ذا نزوات، وسكيرًا، وطاغية في بيته، ومريضًا فوق هذا وذاك، فقد نبتت في رأسه فكرة تزويج إحدى ابنتيه من بسلدونيموف، قائلًا:
- إني أعرفه، فوالده كان رجلًا طيبًا، وسيكون الابن طيبًا مثله أيضًا.
وكان مليكوبيتاييف إذا ما أراد شيئًا صنعه لا محالة. فهو طاغية جبار. وكان يقضي جل وقته جالسًا في مقعد وثير، بعد أن حرمه مرضه من استخدام رجليه، ولكنه مع هذا لم يمنعه من الإفراط في الشراب. فكان يواصل الشرب والسباب أيامًا متوالية بطولها، رجل بغيض هو وحقود ومحب للإغاظة، ولا بد أن يكون بقربه أحد يصب عليه عذابه بلا انقطاع. ولهذا السبب كان يحتفظ بعدد صغير من ذوات قرباه البعيدات في بيته، وهن أخت له عليلة دائمة التذمر والغمغمة، وعمة عجوز كان أحد أضلاعها قد كسر في حادث. وإلى جانب هاتين المرأتين كان يأوي أيضًا سيدة من أصل ألماني، لمقدرتها الخاصة على أن تروي له حكايات من ألف ليلة وليلة. وكانت لذته الأساسية في تعذيب هؤلاء المحتاجات المسكينات المعوزات، بأن يلعنهن بلا انقطاع، مع أنه ما من واحدة منهن، ولا حتى زوجته - التي يبدو أنها ولدت بوجع في أسنانها! - تجسر على أن تتفوه بكلمة احتجاج واحدة.
وكان مولعًا ببذر الشقاق بينهن، ويختلق الأقاويل وينشرها، ثم يطربه أن يراهن جميعًا وقد حملت كل منهن السلاح في وجه الأخريات! وقد أبهجه غاية البهجة أن يرى ابنته الكبرى التي عاشت عشر سنين في أشد حالات التعاسة والفاقة مع زوجها الضابط تعود إليه أرملة، وعلى كاهلها أطفالها الثلاثة العليلون. وكان يكره هؤلاء الأطفال. ولكن ما داموا يمدونه بمادة جديدة لتجاريبه اليومية في التعذيب والتنكيل، فما أشد سروره بهم!
وهذا الحشد الكبير من النساء المنكودات السيئات الطبع والأطفال المرضى يعيشون جميعًا مع الشيطان الموكل بتعذيبهم في البيت الخشبي بذلك الحي من بطرسبرج. وهم أنصاف جياع دائمًا لأن الشيخ كان بخيلًا شحيحًا ولا يخرج المال إلا كوبكات معدودات في كل مرة، مع أنه لا يضن أبدًا بثمن الفودكا. وهم لا ينامون كفايتهم، لأن الشيخ المستنير مصاب بالأرق ولا بد له من الناس حوله يسلونه، ويتسلى بهم!
وقصارى القول أن الجميع في هذا البيت يعيشون حياة تعسة للغاية ويلعنون قدرهم الذي كتب عليهم في هذه الحياة. وفي هذه الفترة وقع بصر مليكوبيتاييف على بسلدونيموف، ولفت نظره أنفه الطويل ومظهره الوديع. وكانت ابنته الصغرى العليلة المظهر قد تجاوزت لتوها عامها السابع عشر. ومع أنها كانت في وقت ما قد دخلت مدرسة ألمانية، فإنها لم تحصل منها على التعليم الأولي فحسب، وشبت بعد هذا سقيمة، ضامرة الجسم تحت وطأة والدها السكير القعيد، في جحيم التخرصات العائلية المنشقة عل

نفسها. فتعودت التجسس، والتقول، والافتراء بالباطل والمشاكسة. وليست لها صديقات يؤنسنها، أو عقل يردعها ويعصمها. وكانت منذ مدة طويلة تكاد تموت لهفة على الزواج. وهي أمام الغرباء وديعة. أما في البيت. وإلى جوار أمها، وسط هذا الحشد من الطفيليات اللواتي يعشن عالة، فهي شكسة، وعرة الطبع، سيئة المعشر، تحب أن تعرض أطفال أختها خلسة، وتدفعهم بضراوة ليقعوا على الأرض، وتشي بهم إن سرقوا السكر والخبز. ولذا كان الخصام الوحشي لا يفتر بينها وبين أختها الكبرى.
وكان الوالد الشيخ هو الذي عرضها شخصيًّا على بسلدونيموف. ولما كان هذا الشاب بتلك الحالة من الفقر، فقد طلب منه مهلة للتفكير. وتروى مع والدته في تدبر هذا الأمر فترة طويلة. ولكن البيت كان بائنة الفتاة. وهو بيت خشبي من طابق واحد، ومتداعٍ.. لكنه بيت بعد كل شيء. وفضلًا عن هذا ستظفر بأربع مئة رول هدية من والدها، وهو مبلغ سيحتاج إلى مدة طويلة كي يدخره بوسائله الفردية.
وصاح الشيخ السكير الطاغية:
- ماذا تظنونني أريد رجلًا في هذا البيت؟ أولًا لأنه مكتظ بالنسوة. وقد سئمت نفس النساء، وأريد بسلدونيموف كي يرقص على موسيقاي، وأسيره كيفما يعن لي! لأنني سأكون عندئذ رب نعمته. وأنا - ثانيًا - أريده لأنكم جميعًا ضد هذا القرار، فهو قرار مكدر ومزعج للجميع. وقد اتخذته كي أغيظكم. فما شئت فعلت، وما قلت أنجزت! وأنت يا بروفيري بسلدونيموف عليك أن تضربها ضربًا موجعًا عندما تمسي زوجتك، فقد كان في جسدها دائمًا - منذ ولادتها - سبعة شياطين! أخرجها جميعًا منها بالضرب الوجيع، وسأشتري لك عكازًا لهذا الغرض! ولم يقل بسلدونيموف شيئًا. ولكنه اتخذ قراره بالموافقة، وحل هو وأمه بالبيت قبل عقد القران، حيث اغتسلا، واكتسيا، وانتعلا، وحصلا على نقود لمصروفات الزفاف. ولعل الشيخ احتضنهما لأن الأسرة كلها كانت ضدهما وتكرههما. بل إنه مال فعلًا إلى والدة بسلدونيموف، فكبح نفسه في معاملتها فلم يسمها العذاب. وأما بسلدونيموف فأمره أن يرقص له رقصة "الكازاتشوك" قبل الزفاف بأسبوع وفي ختام الرقصة قال له:
- كفى. إنما أردت فقط أن أرى هل عرفت مكانك أم لا!
ولم يسمح إلا بأقل مبلغ ممكن لنفقات الزفاف الذي دعا إليه جميع أقاربه ومعارفه. أما العريس فلم يدع من جانبه إلا الصحفي المشاغب، ورئيسه المباشر الباشكاتب أكيم بتروفتش، الذي كان ضيف الشرف.
وكان بسلدونيموف يعلم يقينًا أن العروس تبغض سحنته، وأنها كانت تتمنى لو تزوجت الضابط الطويل بدلًا منه، بيد أنه تحمل هذا كله، فقد كان هذا هو القرار الذي اتخذه هو ووالدته.
وثابر الشيخ طيلة يوم الزفاف ومسائه على السباب المقذع وعب الشراب. واحتشدت الأسرة في الحجرات الخلفية التي غصَّت بها حتى أوشكوا أن

يختنقوا. وأعدت الحجرات الأمامية للحفل الراقص والعشاء، وأخيرًا، في حوالي الساعة الحادية عشرة، عندما غلب السكر الشيخ المستبد على أمره آوى للنوم، رضيت أم العروس - التي كانت في منتهى الشكاسة طول اليوم في معاملتها لأم العريس - أن تغض الطرف عما سلف وتحضر الرقص والعشاء.
وأفسد ظهور إيفان إيلتش المفاجئ كل شيء. وشعرت زوجة مليكوبيتاييف بالارتباك والحرج، واستاءت، ووبخت الجميع لأنهم لم يخطروها بأن جنرالًا حقيقيًّا قد دعي لحفل الزفاف. وحاول الجميع إقناعها مؤكدين لها أنه حضر بدون دعوة، ولكنها ما كانت لتصدق شيئًا من هذا القبيل.
وكان لا بد من إرسال من يشتري الشمبانيا للضيف العالي المقام. ولم يكن مع والدة بسلدونيموف إلا روبل واحد. أما هو شخصيًّا فلم يكن معه ولا كوبك. فكان عليه أن يتذلل لحماته كي تعطيه نقودًا لزجاجة الشمبانيا الأولى، ثم للزجاجة الثانية. وتضرع إليها أن تفكر في علاقته برؤسائه، وفي مستقبله، وناشد ضميرها أن ترحمه. وأخيرًا أعطت بسلدونيموف النقود. ولكن بعد أن أذاقته الأمرين من الذل، حتى أنه اضطر أكثر من مرة أن يندفع إلى الحجرة الصغيرة التي نصب فيها سرير العرس، ليشد شعر رأسه في غيظ صامت، ويلقي بنفسه على وجهه فوق الفراش الذي أعد لفرحة العمر كي يبكي وهو يرتجف غمًّا وقهرًا وغضبًا.
آه! إن إيفان بتروفتش لا فكرة لديه كما تكلفته زجاجتا الشمبانيا اللتان تجرعهما تلك الليلة! فتصور إذن مدى فزع بسلدونيموف وارتياعه وحزنه، بل يأسه، عندما وصلت المسألة إلى هذا الحد الذي وصلت إليه؟
وأمامه أيضًا متاعب جديدة قد تمتد بامتداد الليل بطوله. من صياح العروس العيابة الذي يشبه صرير الحدأة. ودموعها، وتقريعات أقاربها. فلا غرابة أن اسودت الدنيا في ناظريه. ثم ها هو إيفان إيلتش بحاجة إلى مزيد من العون في حالته هذه، فلا بد من استقدام طبيب له في الساعة الثالثة صباحًا، أو إحضار عربة نقل إلى بيته. ولا بد أن تكون عربة خاصة، فلا يجوز أن يعود شخص له مثل مقامه إلى بيته في حالته الراهنة بعربة أجرة مكشوفة ومن أين له بالنقود لأجر هذه العربة الخاصة؟ إن والدة العروس غاضبة غضبًا شديدًا لأن سعادة الجنرال لم يوجه إليها كلمة واحدة، بل لم يعرها التفاتة، ولم يلق نظرة واحدة صوبها أثناء العشاء، فأعلنت أنه لم يعد معها كوبك واحد. ولعلها صادقة في هذا. فمن أي يجيء بالنقود إذن؟ وما العمل؟ هناك إذن مبرر كافٍ كي يشد شعره غيظًا وغمًّا ويأسًا!
وفي هذه الأثناء كان إيفان إيلتش قد حمل حملًا إلى الأريكة الجلدية التي في حجرة المائدة، في حين نحيت الموائد جانبًا، واندفع بسلدونيموف محاولًا اقتراض نقود من أي إنسان. وحتى أنه لجأ إلى الخدم. ولكن لا أحد من هؤلاء جميعًا كان معه نقود. واجترأ فعلًا على إزعاج أكيم بتروفتش الذي ظل بعد

انصراف الجميع، ولكن الرجل الطيب ظهر عليه الارتباك والحيرة - إن لم نقل الارتياع! - عندما جاء ذكر النقود، فراح يتفوه بلغو مفكك:
- مرة أخرى يسرني جدًّا أن... أما الآن، فأخشى أنني... أرجو في الحقيقة أن تعفيني وتعذرني...
والتقط قلنسوته بلهوجة، وأسرع إلى باب الخروج... والشخص الوحيد الذي كان له فائدة في هذا الموقف هو الشاب الطيب القلب الذي تكلم عن كتاب الأحلام. ولكن فائدته كانت محدودة، فقد بقي انصراف الجميع شفقة منه على أحزان بسلدونيموف ومتاعبه.
وأخيرًا تداول بسلدونيموف ووالدته وهذا الشاب معًا وقرروا عدم الإرسال في طلب طبيب، لأن الأفضل البحث عن عربة تنقل المريض إلى بيته. وعليهم - ريثما تحضر هذه العربة - أن يلجئوا إلى معالجته ببعض الوصفات والأساليب المنزلية، مثل غسل رأسه وصدغيه بالماء البارد، ووضع الثلج على رأسه وما إلى ذلك.
وتعهدت الأم بهذه الأمور، وانصرف الشاب للبحث عن مركبة. ولما لم يجد في هذه الناحية ولو مركبة أجرة مكشوفة في هذه الساعة، توجه إلى حانة يرتادها الحوذية على مشارف المدينة، وأيقظهم، فراحوا يساومون مؤكدين أن خمسة روبلات لن تكون كافية لأجر عربة في هذا الوقت من الليل. ومع هذا قبل أحدهم - أخيرًا - أن يتقاضى ثلاثة روبلات. ولكن عندما عاد الشاب إلى بيت بسلدونيموف في الثالثة صباحًا بعربة الأجرة، كانت الخطط قد تغيرت تحت ضغط الظروف.
فقد اتضح أن إيفان إيلتش الذي اشتد عليه المرض والغيبوبة، راح يتقلب ويئن، بحيث صار من المستحيل، إن لم يكن من الخطورة بمكان، تحريكه من موضعه. وتساءل بسلدونيموف وهو في أقصى حالات الجزع واليأس:
- ومن يدري عم يتمخض هذا كله؟ وما العمل؟
وبرزت مشكلة جديدة، فإن كان لا بد من ترك المريض في بيتهم، فأين يضعونه، فالبيت كله ليس فيه إلا سريران، سرير كبير ينام فيه الشيخ مليكوبيتاييف مع زوجته، وسرير مزدوج اشتري حديثًا - تقليدًا لخشب الجوز - مخصص للعروسين ليلة زفافهما، أما سائر سكان البيت فيبيتون على الأرض، متكومين ومتراصين على حشايا من الريش في حالة زرية من الرثاثة والقذارة، وعددها لا يكاد يكفيهم.
فأين يضعون المريض إذن؟ فلا يمكن الآن الحصول على حشية من الريش تلائمه. ولنفرض أنهم جربوا إحدى الحشايا من تحت النيام، فأين تراهم يضعونها له؟ وعلى أي شيء يضعونها؟
وتبين أن أفضل مكان لهذا حجرة المعيشة، لأنها أبعد الحجرات عن بقية أعضاء الأسرة. ولكن على أي شيء يضعون الحشية هناك؟ ليس على الكراسي طبعًا. فصغار التلاميذ فقط هم الذين توضع لهم الحشايا على

الكراسي عندما يحلون ضيوفًا على البيت من مدارسهم في أيام الآحاد. ومثل هذا الإجراء سيكون بمثابة إساءة أدب في حق إيفان إيلتش. فماذا عساه يقول غدًا إذا ما استيقظ ووجد نفسه نائمًا على الكراسي؟
أبى بسلدونيموف أن يقبل كلامًا في هذا. فلم يبق ثمة إلا حل واحد، أن يضعوه في سرير العرس. وهذا السرير - كما ذكرنا آنفًا - منصوب في حجرة ضيقة من داخل حجرة المائدة. وعليه حشية مزدوجة جديدة، لم ينم عليها أحد من قبل، ومن فوقها مفارش نظيفة، وأربع وسائد وردية داخل أكياس من الموسلين. واللحاف من الساتان الوردي الكثير الزخارف. وعلى الجملة كان كل شيء آية في النظافة. وتحيط بالفراش ستائر معقودة في حلقة مذهبة. وكان جميع المدعوين قد زاروا هذه الحجرة، وأثنوا على جمال الفراش أعظم الثناء.
وبرغم ما كانت تكنه العروس من المقت لبسلدونيموف، فإنها تسللت مرارًا أثناء السهرة لتلقي نظرة على الفراش البديع. ولذا ما كان أعظم استنكارها عندما علمت أن الضيف العظيم الذي سقط مريضًا بما يشبه الكوليرا، سيوضع في فراش عرسها!
وحاولت أمها أن تؤيدها في معارضتها، صارخة ومهددة بالشكوى إلى زوجها في اليوم التالي، ولكن بسلدونيموف أثبت في الأرض قدمه وأصر على تنفيذ مشيئته.
ووضع إيفان إيلتش في مخدع الزفاف، ووضعت حشية من الريش فوق الكراسي بحجة المعيشة لمبيت العروسين!
وانتحبت العروس، ونشجت، وكانت مستعدة أن تقرص كل إنسان يقع تحت يدها، ولكنها لم تجسر على العصيان. فوالدها له عكاز تعرف جيدًا طعمها، وهي متأكدة أنه سيطلب تقريرًا مفصَّلًا عن أمور معينة في صباح اليوم التالي. وإرضاء لها جيء باللحاف الوردي والوسائد ذات الأكياس الموسلين إلى حجرة المعيشة. وفي هذه اللحظة كان الفتى قد حضر بالمركبة. ولما عرف أنه لم تعد هناك حاجة إليها استولى عليه الارتياع. فلا بد له أن يدفع أجر المركبة وهو لم يحمل قط في جيبه ما يساوي عشرة كوبكات. وأعلن بسلدونيموف إفلاسه التام.
وبذلت محاولات لتهدئة ثائرة الحوذي، الذي لم يُجدِ شيء في كفه عن الصياح، والدق العنيف على مصاريع النوافذ. ولست أدري كيف انتهى هذا الموقف الحرج. وأغلب الظن أن الفتى استقل العربة - بمثابة رهينة - إلى شارع يقطن أحد رفاقه فيه فيوقظه عسى أن يجد معه نقودًا يقترضها لينقد الحوذي أجره.
وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة صباحًا عندما أغلق باب حجرة المعيشة على العروسين. وظلت أم بسلدونيموف ساهرة عند فراش المريض طول الليل، مضطجعة أحيانًا فوق بساط على الأرض، وتغطت بمعطفها، ولكنها لم

تستطع أن تنام، لأنها كانت مضطرة بين لحظة وأخرى للنهوض.. لأن إيفان إيلتش أصيب بإسهال عنيف. وكانت المرأة الشجاعة الكريمة تخلع له ثيابه بيديها، وتنظفه، وكأنه وليدها، حاملة الأدوات والأواني اللازمة لذلك من حجرة النوم إلى دورة المياه طول الليل.
ولكن مصائب هذه الليلة السوداء لم تكن وصلت إلى ختامها بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (8)

ولم تكد تمر عشر دقائق على إغلاق باب حجرة المعيشة على العروسين، حتى سمعت أفظع صرخة. لم تكن صيحة فرح، بل صيحة كرب أشد ما يكون الكرب... وأعقبت ذلك رجة، وصوت ارتطام، وجلبة كجلبة سقوط كراسي. وإن هي إلا لحظة حتى كانت الحجرة المظلمة قد اقتحمها حشو من النساء الفاغرات الأفواه اللاهثات فزعًا، وهي في شتى صنوف الملابس الداخلية. وكانت أولئك النسوة هن أم العروس، وأختها الكبرى التي تركت أطفالها المرضى، وعماتها الثلاث، بما فيهن العمة ذات الضلع المكسور. إن الطاهية أيضًا كانت من بين المقتحمين، وكذلك المرأة الألمانية التي تروي الحكايات والأساطير، وهي التي سحبت عنوة من تحتها حشيتها، لأنها أفضل ما في البيت من الحشايا - وهي بهذه المناسبة كل ما تملكه من حطام الدنيا - لكي يرقد عليها العروسان، جاءت أيضًا لترى ما الذي حدث.
كل أولئك النسوة الفضليات ذوات الفكر الثاقب كن يتسللن متلصصات على أطراف أصابع أقدامهن على امتداد الدهليز الموصل من المطبخ إلى حجرة المعيشة، طيلة ربع الساعة الماضية، وقد استولى عليهن فضول لا قبل لهن بمقاومته.
وفي هذه الأثناء أضاء شخص ما شمعة، فكشف لهن منظرًا غير متوقع على الإطلاق. فالكراسي لم تتحمل الثقل المزدوج الذي على الحشية، فتهاوت متراجعة عن الحشية، التي وقعت بين الكراسي على الأرض. وكانت العروس تنتحب من شدة الغيظ، وقد أصابتها المهانة هذه المرة في الصميم. ووقف بسلدونيموف مصعوقًا، وكأنه مجرم أخذ متلبسًا بجرمه، فلم يحاول أن يدافع عن نفسه. وارتفعت الصرخات والزمجرات من كل صوب.
وسمعت والدة بسلدونيموف الضجة فجاءت أيضًا وهي تجري، ولكن أم العروس سجلت هذه المرة عليها نصرًا مؤزرًا. وبدأت تصب وابلًا من الشتائم واللعنات الغريبة على رأس بسلدونيموف، معظمها توبيخات جائرة، من قبيل: أتسمي نفسك بعد هذا زوجًا؟ وما فائدتك بعد كل هذا الخزي.
وظلت تزمجر على هذا النحو، إلى أن جذبت ابنتها من يدها وأخذتها بعيدًا عن عريسها، آخذة على عاتقها مسئولية مواجهة الأب في الصباح، عندما يطلب تقريرًا عن أمور معينة بالذات المفروض حدوثها هذه الليلة.
وتدفقن جميعًا وراء أم العروس خارجات، وهن يتحدثن في صوت واحد ويهززن رءوسهن. ولم يبقَ مع بسلدونيموف إلا أمه، التي حاولت تعزيته والتسرية عنه، ولكنه أخرجها من الحجرة، وبقي فيها بمفرده.
لم يكن إلى عزائه من سبيل، فاتجه صوب الأريكة وارتمى فوقها وغرق في أشد التأملات قتامًا، وهو حافي القدمين، ولا تستره إلا أخف الملابس

الداخلية. وراحت الأفكار والخواطر تتدافع وتطارد بعضها بعضًا داخل دماغه.
وكان في بعض الأحيان يلقي نظرة آلية على الحجرة التي كان الراقصون منذ قليل يملئونها صخبًا وزياطًا ومرحًا ضاريًا، حيث لم يزل الهواء محملًا بدخان السجائر ورائحتها. والأرض القذرة عليها أوراق من أغلفة الحلوى التي أكلوها، وأعقاب سجائر. وانهيار فراش العرس، وتناثر الكراسي تنهض دليلًا مجسمًا على أن أبهى أحلام العمر إن هي إلا باطل الأباطيل.
وظل جالسًا هناك زهاء ساعة، لم تراوده فيها إلا أشد الأفكار سوادًا، من قبيل: والذي يتوقعه الآن في الديوان؟ وأيقن أنه لا بد من البحث عن عمل آخر بأي ثمن، لأنه من المستحيل عليه أن يظل في عمله القديم بعد هذا الذي حدث.
وخطر بباله أيضًا مليكوبتياييف، الذي سيرغمه غدًا بلا شك على أن يرقص له، كي يختبر إذعانه وانقياده، وتذكر أن مليكوبيتاييف لم يشر بكلمة واحدة إلى الأربع مئة روبل الأخرى التي وعده بها بائنة، بالإضافة إلى البيت. وحتى هذا البيت لم تنقل ملكيته باسمه رسميًّا بعد.
ثم انتقلت خواطره إلى التفكير في زوجته التي هجرته وتخلت عنه في أشد لحظات حياته حرجًا وضنكًا... وتراءى له منظر الضابط الطويل الضامر وهو راكع على إحدى ركبتيه أمامها. لقد رأى ذلك بعيني رأسه... وفكر في الشياطين السبعة الساكنين في جسدها، بشهادة أبيها، وفي العكاز أو النبوت الذي أعده لطرد هذه الشياطين. وشعر أنه خليق أن يتحمل الكثير، ولكن القدر يترصده بألاعيبه بصورة جعلته يشك في طاقة احتماله.
هكذا كانت أحزان بسلدونيموف وأشجانه. وفي مدى هذه الساعة كانت الشمعة قد أوشكت على الانتهاء وشعلتها المتراقصة ساقطة على المنظر الجانبي لوجهه، فألقت له ظلًّا هائلًا على الجدار المقابل فإذا عنق طويل، وأنف معقوف، وخصلتان من الشعر ناتئتان، إحداهما من جبهته، والأخرى من مؤخرة رأسه.
وأخيرًا، عندما بدأت رطوبة الصباح تتسلل إلى الحجرة، نهض وهو يرتجف، وارتمى على الحشية المطروحة على الأرض حيثما اتفق بين الكراسي، ومن غير أن يطفئ بقية الشمعة، أو يضع وسادة تحت رأسه، لملم الأغطية فوق جسمه، واستغرق في نوم ثقيل كأنه الموت، لعله أشبه ما يكون بنوم المحكوم عليهم بالإعدام عشية التنفيذ.

(9)

ولكن ماذا يمكن أن يقارن بليلة العذاب التي قضاها إيفان إيلتش برالنسكي على فراش عرس بسلدونيموف! صداع وغثيان وأحاسيس أخرى كريهة لم تفارقه لحظة واحدة في البداية. لقد مرَّ المسكين بعذابات الجحيم. وكان وعيه - الذي كان يومض كابيًا في دماغه تلك الليلة - تضيء له مهاوي رهيبة، فيرى مشاهد فظيعة كئيبة. بحيث أنه كان خيرًا له ألف مرة لو أنه ظل فاقد

الوعي طول الوقت. ولكن خواطره المبلبلة المضطربة سمحت له أن يتعرف على والدة بسلدونيموف، وأن يسمع نصائحها العطوف، وهي تكرر عليه:
- تشدد يا عزيزي. تجلد...
وبرغم تعرفه عليها لم يستطع أن يفسر لنفسه بصورة منطقية سبب وجودها بجواره. وتراءت له أشباح مروعة، معظمها تمثل سيميون إيفانوفتش. ولكنه عندما كاد يدقق النظر فيها يتبين أنها ليست أشباح سيميون حقًّا، بل هي أنف بسلدونيموف، وكذلك الفنان، والضابط، والعجوز ذات الخد المتورم، كانوا جميعًا يمرقون أمامه بسرعة.
وأهم ما كان يشغل تفكيره تلك الحلقة المذهبة المعلقة من فوقه في الفراش، وقد ضمت الستائر. وكان في وسعه أن يراها بوضوح في ضوء الشمعة الكابي، وظل يسأل نفسه:
- ما شأن هذه الحلقة؟ لماذا هي هنا؟ وما معناها؟ وفيم تستخدم؟
وسأل عنها أم بسلدونيموف عدة مرات، ولكن لا بد أنه قال لها شيئًا آخر غير هذا الذي أراد قوله، فلم تستطع أن تفهم عنه. برغم كل اجتهادها في الفهم ورغبتها في إراحة باله.
وأخيرًا، قبل انبثاق الصبح مباشرة توقفت الآلات والنوبات، ونام نومًا عميقًا لا تتخلله أحلام مدة ساعة. ولما استيقظ كان قد استرد وعيه تقريبًا. ولكنه أحس صداعًا هائلًا لا يطاق، وكان طعم فمه رهيبًا، وشعر بلسانه كما لو كان قطعة من الفانلة. فجلس في الفراش، ونظر حوله، وحاول أن يفكر.
وكان ضوء الفجر الشاحب يناضل لاختراق وصاوص النافذة، ليلقي مساحة تزداد اتساعًا على الجدار المقابل. وكانت الساعة حوالي السابعة صباحًا. ولكن عندما تبين إيفان إيلتش أين هو، وتذكر كل ما حدث تلك الليلة، وتذكر الوقائع التي جرت على مائدة العشاء، تجلت له في ومضة واحدة فظاعة الإحباط الذي منيت به محاولته البطولية، وما صاحبها من خطابة، وما ترتب علي هذا كله من نتائج. ولما نظر حوله ورأى ما تسبب فيه من فوضى وقذارة وخسائر لحقت بفراش عرس مرءوسه المسكين، ركبه الخزي والعار، حتى أنه بكى، وغطى وجهه بيديه، وألقى بنفسه على الوسادة وهو في أسوإ حالات اليأس.
وبعد دقيقة قفز من الفراش، ورأى ملابسه على كرسي وقد طويت بعناية بعد تنظيفها، فتناولها وشرع يرتديها بسرعة. وهو يلقي بنظرات الفزع من فوق كتفيه. كان معطفه وقلنسوته على كرسي آخر، وقفازه داخل قلنسوته.
وود لو استطاع أن يتسلل إلى الخارج من غير أن يتنبه إليه أحد، ولكن الباب انفتح فجأة ودخلت منه أم بسلدونيموف حاملة إبريقًا من الخزف وحوضًا من الصيني، وعلى كتفها منشفة. ووضعت الحوض وطلبت إليه أن يغسل وجهه:
- لا بد أن تغسل وجهك يا سيدي. فلا يمكن أن تخرج هكذا.

وفي هذه اللحظة شعر إيفان إيلتش أنه إذا كان في الدنيا كلها مخلوق يستطيع أن يشعر أمامه بالارتياح، وأنه على سجيته، ولا يخشى شيئًا، فهو هذه المرأة. وغسل وجهه...
وكان فيما بعد هذا اليوم بأمد طويل يتذكر في أوقات الكآبة كل شيء عن هذه اليقظة، وذلك الإبريق الخزفي والحوض الصيني، وما فيهما من ماء بارد، لم تزل تطفو فوق قطع صغيرة من الثلج، وتلك القطعة البيضاوية من الصابون، المغلفة بورق وردي، التي تساوي خمسة عشر كوبكًا، وقد اشتريت بلا شك ليستخدمها العروسان الشابان، ولكن القدر شاء أن يكون إيفان إيلتش أول من يستخدمها... ويتذكر المرأة التي تحمل المنشفة فوق كتفها اليسرى...
وأنعشه الماء البارد، وجفف وجهه. ومن غير أن يقول كلمة واحدة يشكر بها ممرضته تناول قلنسوته ومعطفه اللذين قدمتهما إليه والدة بسلدونيموف. وأسرع يمرق من الدهليز، ثم اخترق المطبخ حيث كانت القطة تموء، والطاهية التي رفعت هامتها فوق الحشية، وتعقبته بنظرها بفضول شديد. واندفع إلى الفناء، ومنه إلى الشارع، حيث استوقف عربة أجرة مكشوفة كانت عابرة.
وكان يومًا يجلله الصقيع، والضباب البارد الضارب للصفرة يغطي البيوت وجميع الأشياء المكشوفة. ورفع إيفان إيلتش باقة معطفه، وقد خيل إليه أن كل إنسان يحملق فيه، ويعرف من هو، ويتساءل من أين جاء.
ولم يفارق بيته ثمانية أيام، لم يذهب فيها إلى الديوان. فقد كان مريضًا. وكان مرضه معنويًّا أكثر منه جسديًّا. وفي تلك الأيام الثمانية قاسى عذاب الجحيم، ومرت به لحظات فكر فيها جديًّا أن يدخل ديرًا. واتجهت مخيلته ذلك الاتجاه. وكان يسمع غناء خفيضًا صادرًا من تحت الأرض، ويرى قبرًا مفتوحًا، ويتصور الحياة في صومعة منعزلة في الغابة، أو في أحد الكهوف والمغاور. ولكنه ثاب إلى رشده وأدرك أن هذا كله لغو وهراء، وأصابه الخزي من ورود هذه الأفكار على ذهنه. ثم بدا عذابه المعنوي من "حياته الفاشلة". وأخذ يعاني من هذا الإحساس، كأنما حشيت جراحه بالملح! وارتجف من هول الصور التي تراءت له حين استعاد ما حدث.
ترى ماذا سيقولون عنه عندما يعود إلى الديوان؟ ماذا سيظنون به؟ وأي همسات ستدور عنه من وراء ظهره سنة كاملة، وربما عشر سنين، أو ما تبقى من سنوات عمره؟ بل إن حكايته هذه ستتوارثها الأجيال. ولن يجد عذرًا لسلوكه أبدًا.
وخطر له أن يذهب إلى سيميون إيفانوفتش ويركع أمامه يسأله الصفح... وفكر أن يقدم استقالته فورًا ويقف حياته على إسعاد الجنس البشري في عزلته الجديدة وبمجهوده الفردي. وهو على الأقل مضطر إلى أن يغير جميع أصدقائه ومعارفه، وبطريقة تستأصله من ذاكرتهم. ثم تبين له أن هذا كله

أيضًا هراء ولغو، وأن كل شيء من الممكن إصلاحه برد فعل مضاد، أي بانتهاج الشدة والصرامة البالغة مع مرءوسيه. وعندئذ بدأ يشعر بالراحة والانتعاش. وبعد ثمانية أيام من الشك والعذاب أحس أنه لم يعد يطيق الانتظار، وقرر ذات صباح صحو أن يذهب إلى الديوان.
وفي أثناء وجوده بالبيت حاول ألف مرة أن يتخيل نفسه وهو يدخل الديوان، وتخيل مذعورًا أنه سيسمع همسًا من وراء ظهره وهو سائر في البهو أو الدهليز، وسيرى سحنًا ذات نظرات خبيثة ماكرة وابتسامات صفراء. ولكن ما كان أشد دهشته عند ذهابه، فلم يجد شيئًا من هذا كله، بل قوبل باحترام كالعادة، وانحنوا له. وكان الجميع جادين، مشغولين بأعمالهم، فامتلأ قلبه حبورًا. وشق طريقه هادئ البال إلى مكتبه الخاص.
وما إن دخله حتى أغرق نفسه في أعماله الهامة، واستمع لعدة تقارير، وأصدر تعليماته بصددها. وشعر بأنه لم يكن في حياته أرزن ولا أحكم رأيًا مما هو في يومه هذا. وأدرك أنه موضع الرضا والاحترام والقناعة. وهكذا لم يسمح له غروره أن يرى شائبة نقص في تصرفاته. وصار كل شيء على ما يرام.
وأخيرًا ظهر أكيم بتروفتش نفسه ومعه بضع أوراق للعرض. وما إن رآه حتى شعر بخفقة قوية في قلبه، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة واحدة. وراح يناقش الموضوعات مع أكيم بتروفتش وهو منتفخ الأوداج، وأصدر إليه تعليماته بكل عنجهية. ولكنه لاحظ في الوقت نفسه أنه لا ينظر إلى عيني أكيم بتروفتش كثيرًا، أو على الأصح أن أكيم بتروفتش يتجنب النظر إليه، خوفًا منه. وأخيرًا انتهت الموضوعات وشرع أكيم يجمع أوراقه، وإذا به يقول بنبرة تعمد أن تبدو عادية جدًّا:
- هناك التماس آخر يا صاحب السعادة. إن الكاتب بسلدونيموف يطلب النقل إلى ديوان المصلحة، وقد وعده سعادة سيميون إيفانوفتش بمنصب فيها. وبسلدونيموف يلتمس موافقتكم يا صاحب السعادة.
وأحس إيفان إيلتش عبئًا ثقيلًا أزيح عن كاهله، وقال وهو ينظر في عيني أكيم بتروفتش لأول مرة:
- آه. إذن هو يرغب في النقل؟ ليكن، أنا من جهتي موافق وأزكيه...
وبدا على أكيم بتروفتش التلهف على مغادرة المكتب، ولكن إيفان إيلتش واتاه إلهام مفاجئ، فاستوقفه وقال له: وهو يثبت نظرة ذات معنى على أكيم بتروفتش:
- بلغه أنني لا أحمل له أي ضغينة. لا أحمل له ضغينة على الإطلاق. بل على العكس، أنا مستعد لنسيان الماضي. لنسيانه برمته!
وأدهشته أن يرى أكيم بتروفتش الرزين جدًّا عادة، وكأنما أصابته لوثة، فبدلًا من الإصغاء له باحترام كالعادة، ارتبك، واحمر وجهه احمرارًا شديدًا جدًّا، وأسرع يلتمس باب الخروج، وهو ينسحب بظهره مكررًا انحناءات صغيرة ملهوجة. وكأنه يتمنى لو انشقت الأرض وبلعته.

ولما صار إيفان إيلتش وحده، نهض عن مقعده بشيء من الاضطراب، ونظر في المرآة من غير أن يرى صورته، وهمس لنفسه بلا وعي تقريبًا:
- لا بد من الشدة مع المرءوسين، الشدة، ثم الشدة ولا شيء إلا الشدة!
وفجأة صبغت وجهه حمرة خجل شديدة، وشعر بخزي أشد من كل ما شعر به في أيام مرضه الثمانية، وقال لنفسه، وهو يرتمي على مقعده:
- لم أستطع أن أمضي في مسعاي إلى النهاية، لم أستطع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

**(تمت بحمد الله وتوفيقه)**

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

**Group Link – لينك الانضمام الى الجروب**

**Link – لينك القنـــــاة**

# فهرس المحتويات


عن هذا الكتاب..
مقدمة..
الوديعة
*القسم الأول*
(1)
*من أنا ومن هي..*
(2)
*عرض زواج*
(3)
*أنبل البشر*
(4)
*خطط، ولا شيء سواها*
(5)
*الوديعة تتمرد*
القسم الثاني
(1)
*حلم الكبرياء*
(2)
*وسقطت الغشاوة فجأة*
(3)
*وفهمت كل شيء*
(4)
*متأخرًا خمس دقائق بالضبط*
حادث مؤسف للغاية
(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)
(7)
(8)

# Notes

(1) جون ستيوارت ميل فيلسوف إنجليزي من شر أنصار المرأة. المترجم [←1]

(2) الموزيك أدنى طبقة من الفلاحين في روسيا القيصرية. المترجم [←2]